الفصل الثاني

الحياة الفكرية والاجتماعية

obeikandl.com

obeikandl.com

هذه الحياة الفكرية والاجتماعية ، التى سجلها الجبرتى ، عن غير قصد ، ومن غير ترتيب ولا تبويب ، من أجل ما دونه . ومن أهم ما حفظه لنا من صور هذه الأيام ، التى لم يسجلها سواه . وفى هذه الحياة الاجتماعية خاصة ، نرى من العادات ، والتقاليد ، والأفكار ، والمعتقدات ، ما لا نزال نجد شيئاً منه ، أو هو منه قريب ، فى حياة المجتمع المصرى الذى نعيش فيه . أو ما كنا نراه إلى وقت قريب ، ثم جاءت الحياة الغربية الجديدة تمحو من صفحاته سطراً فسطرا ، وتخط فيها سطورا جديدة ، تصور مجتمعاً جديداً ، أو خليطاً من قديم وجديد .

وقد سجل الجبرتى هذه الصفحات من حياة مصر الاجتماعية والأدبية ، فى ثنايا هذه الحوادث التى دونها يوما فيوما ، أو بين تراجم الذين ترجم لهم فى وفياته التى كان يخصص لها غالباً ، الفصول الأخيرة من ختام السنة التى يؤرخ أيامها ، وما كان فيها من حوادث ووقائع . وما جد فيها من أمور . وقد تكون هذه الحوادث والوقائع والأمور ، التى قصد الجبرتى إلى تسجيلها ، أولا وبالذات ، أقل شأنا ، أو هى كذلك الآن على الأقل ، من هذه الصور الحية ، الخلابة ، الصادقة ، التى جاءت تبعاً لهذه الحوادث من صور الحياة الاجتماعية .

وليس من الطبيعى أن نطالب الجبرتى بتسجيل مظاهر الحياة الاجتماعية التى كان يحياها الناس إذ ذاك ، فى القاهرة ، أو فى الريف . فذلك فن من القول والكتابة جديد ، لم يعرفه الناس فى عصره ، ولم يتنبه له كاتب أو مؤلف . والذى يعيش بين الناس ويرى عاداتهم ، ويشارك فيها كل يوم وساعة . لا يتنبه إلى ما يجد على حياتهم وحياته من تطور أو تحول بطىء ، وما يدخل فى هذه الحياة أو ينمحى فيها ، أو يمتزج بها بفعل الزمن ، وتأثير الخلطة والاتصال بين الناس ، بالتجارة ، أو الحرب ، أو السفر . إلى غير ذلك من شؤون الحياة التى لا تنى عن التطور والتحول والمزج .

وهو لذلك يعتقد ، أو يشعر ، بأن هذه العادات التى اعتادها معاصروه ، والحياة التى يلابسها معهم فى كل شأن وأمر ، ستبقى ، كما هى ، لا يمسها تغيير

ولا تبديل . فليس مما يفيد أن يسجلها ، أو يكتب فيها ، على فرض أنه تنبه لأن يكتب أو يسجل من ذلك شيئاً .

ولكن الجبرتى خرج عن هذه القاعدة ، فى فترة من هذه السنين التى سجل تاريخها فى كتابه . وهى فترة الحملة الفرنسية . فقد سجل ، أولا وبالذات ، طائفة من الآثار الاجتماعية ، التى خلفتها جنود هذه الحملة فى القاهرة . وقد وفينا ذلك حقه فيما كتبناه عن أثر هذه الحملة فى ختام هذا الجزء .

وخروج الجبرتى عن القاعدة فى هذه الفترة ، أمر طبيعى ، فإن الأثر الذى أو جدته ، وخلفته ، هذه الحملة ، كان من الوضوح والقوة ، بحيث تنبه له الجبرتى ، وأحس بنفسه وقعه فى حياة المجتمع القاهرى ، الذى كان هو أحد أركانه ، وعمده ، وخاصة فى حياة المرأة . ونحن نعرف ، وما نزال نلمس فى مجتمعنا الحاضر ، ما يحسه المجتمع المصرى نحو المرأة ، وما يلابس شؤونها ، ويمس سلوكها ، وأخلاقها ، وملبسها ، وآدابها . والناس فى مصر والشرق ، لهم حساسية شديدة ، نحو ما يتصل بالمرأة ، وشأنها كله .

والحياة الفكرية ، فى العصر الذى أرخه الجبرتى ، تكاد تكون مقصورة على الأزهر ، فهو محور هذه الحياة ومنبعها ، وبيئتها . حتى الذين ليسوا من علمائه ، أو رجاله ، كالسيد مرتضى الزبيدى ، أو كالجبرتى نفسه ، لم يكونوا بعيدين عنه ، ولا عن علمائه ورجاله .

ولم تكن هذه الحياة الفكرية خصبة ولا عميقة ولا قوية . ولكنها كانت حياة مصر الفكرية فى ذلك التاريخ . وهى ، بلا شك ، لا بد أن تدوّن وتدرس بكل ما تستحق من أمانة ودقة وتفصيل . على أنها ، كما ترى بعد قليل ، لم تخل من شىء ، أو أشياء ، ذات قيمة .

النثر والشعر

كان النثر سجعاً ، غثّاً ثقيلا ، مرذولا . يمثله ما كتبه الشيخ حسن العطار احسن ، أو أصدق تمثيل . فما أحب أن يذكر الحسن فى هذا المعرض .

والشيخ حسن العطار رجل من رجال هذا العصر الذى سجله الجبرتى ، وهو حقيق أن نتوسع بعض الشىء فى الحديث عنه . لأنه كان منفرداً عن أهل عصره بأشياء تستحق أن تسجل .

ولد الشيخ حسن بن محمد العطار سنة ١١٨٠ وكان من علماء الأزهر ، ثم شيخاً له . ولكنه تميز عنهم بتلك الرحلات التى قام بها فى كثير من البلاد . كما تميز بروح تجديدية جعلته يدعو دعوة خافتة لأن تتأثر مصر بالحضارة الأوربية . وهذه الدعوة الخافتة ؛ هى بمثابة ثورة إذا رعينا ظروف البيئة والزمن .

كان أبوه ، الشيخ محمد كتن ، رجلا فقيراً عطاراً ، ولكنه يشتغل بالعلم . وكان ابنه هذا يعينه فى دكانه ، ويستمع إلى شىء من علمه . ولكنه كان يرغب فى العلم أكثر مما يرغب فى ممارسة البيع والشراء فى شؤون العطارة . فكان ينفلت من دكان أبيه إلى الأزهر فيحضر دروس العلماء فيه . يفعل ذلك خفية من أبيه . فلما عرف أبوه ذلك وعرف أنه حفظ القرآن ، سرّ به كثيراً وساعده على التقدم فى طلب العلم والانقطاع له .

ثم جاء الفرنسيون مصر وهو شاب عالم صغير . فخاف على نفسه منهم ، وهرب ، كما هرب كثيرون غيره من العلماء ، فنزح إلى الصعيد . ثم عاد إلى القاهرة فاتصل بطائفة من رجال الحملة الفرنسية يتعلم منهم أشياء من معارفهم ، ويعلمهم اللغة العربية . « ويقول إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها . ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة — الفرنسية — من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة[1] » .

ثم سافر الشيخ بعد ذلك إلى الشام فأقام فيها زمناً . يتطارح الشعر مع شعرائها ويراسل علماءها ويصف غوطتها ومنازهها .

ورحل بعد ذلك إلى تركيا فأقام فيها زمناً طويلا . وخاصة فى بلدة سكودرة ، حيث تزوج من أهلها وأعقب . ولكن عقبه مات ، ثم عاد بعد ذلك إلى مصر وقد زاد علما وخبرة ومعرفة . وجلس يدرس التفسير ، فكان العلماء يتركون

---

(١) ص ٣٨ خطط على باشا مبارك جزء ٤ .

حلقات غيره ويتكاثرون على حلقته يستمعون . وقدم فى أيام محمد على رجل من الدروز اسمه بطرس ، وكان ذا علم بالتواريخ والأنساب والأيام وعلوم العربية ، فتعرف إليه الشيخ وكانت بينهما صداقة ومحبة ، ومدح بطرس الشيخ بشىء من الشعر .

وللعطار مؤلفات عدة ، فى علوم الفقه والنحو والمنطق ، ورسائل فى الهندسة والطب ، والتشريح ، والرمل والزايرجة . وكانت أسرته فى الأصل من بلاد المغرب . وكان يرسم بيده المزاول لمعرفة الوقت بالليل والنهار .

كما كان من أصدقاء الجبرتى الحميمين . ولكن العطار تقرب إلى محمد على عند ما استقر له الأمر ، وخدمه . وأنشأ فيه المدائح وفى ابنه إبراهيم ، وأهدى إليه كتابه فى الرسائل . واختاره محمد على محرراً للوقائع المصرية ، أول صدورها . ثم ولاه مشيخة الأزهر ، فى الرابع من شوال سنة ١٢٤٦ بعد وفاة الشيخ الدمهوجى . وبقى فى المشيخة إلى أن مات فى سنة ١٢٥٠ بعد وفاة صديقه الجبرتى بتسع سنوات . وقد انحاز العطار إلى محمد على ، كما رأينا ، وخاصمه الجبرتى خصومة عنيفة متصلة . ولكن هذا الخلاف فى الاتجاه والمنهج لم يبعد ما بين الصديقين ، ولم يوهن ما كان بينهما من محبة وود . حتى أن الجبرتى بعد موته ، تكفل العطار بأسرته وعقبه . وأعانهم على الحياة عونا مخلصاً .

وكان العطار شاعراً ناثرا . ولا أريد أن أقتبس شيئاً من نثره ، فقد طبعت قطعة كبيرة منه يمكن أن يرجع إليها من يشاء[1] ولكنى أنقل فهرس هذا الكتاب الذى جمعت فيه هذه القطعة من النثر . ففيها دلالة على ما تناوله الشيخ من مواضيع . ودلالة أيضاً على ما كان يفكر فيه الناس ، ويتناوله الكاتبون من شؤون الفكر . وفيها كذلك إشارات إلى شىء من الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر . وكان الناس يتخذون من هذه الرسائل وأمثالها نماذج ، أو يقتبسون منها فى كتبهم .

تبدأ رسائل الشيخ ، بعد المقدمة ، بالنوع الأول من الرسائل ، وهى فى

---

(١) طبعت رسائل الشيخ العطار فى المطبعة العثمانيه بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ وذكر فيها أنها بعض ماأنشأه ، لا كله .

مخاطبات الملوك والأمراء ، فى الدولة العثمانية . ثم مخاطبات القضاة ، والعلماء والمشايخ . ثم فى رسائل الإخوان . وتقريظ ترجمة ألفية ابن مالك للغة التركية ، ثم قطعة من كتاب ألفه فى رحلته إلى الشام . وصف بها دمشق ، ومنازهها . وقطعة أخرى فى وصف القسطنطينية وخليج البسفور . ثم أورد بعد ذلك أبياتاً من الشعر يفتتح بها الكاتب رسائله ، أو يضمنها إياها ، أو يستشهد بها . ومجموعة من « الطرائف والظرائف » . وهى أمثال « تحاضر بها الكتّاب ، ويحلون الكتاب » . ثم تختم الرسائل بمجموعة من النماذج لكتابة العقود ، والشروط ، والصكوك . مما يتعلق بحياة الناس ، ومعاشهم ، وتجارتهم . ومنها صيغة لكتابة عقد العتق للرقيق ، والتدبير[1] وفى هذه الرسائل صفحات من النثر المرسل . ليس فيها ذلك السجع الثقيل .

وما كتبه العطار فى وصف منازه القسطنطينية ، ومياه البسفور ، وهى قطعة من كتاب ألفه فى رحلة إليها ، خير مثل — فى تقديرى — لأسلوب الشيخ فى نثره[2] .

وللشيخ حسن العطار شعر ، لعله خير من نثره . فمن ذلك هذا الشعر الذى يصف فيه بركة الأزبكية ، وما كان له فيها من مسرات ، وما كان حولها من قصور : —

بالأزبكية طابت لى مسرات ... ولذ لى ، فى بديع الأنس ، أوقات

حيث المياه بها ، والفلك ، سابحة ... كأنها الزهر تحويها السموات

وقد أدير بها دور مشيدة ... كأنها ، لبدور الحسن ، هالات

والماء ، حين سرى رطب النسيم به ... وحل فيه من الأدواح زهرات

كسابغات دروع ، فوقها نقط ... من فضة ، واحمرار الورد طعنات

وللشيخ حسن العطار قصيدة فى مدح صديقه الشيخ أبى القاسم المغربى ، شيخ رواق المغاربة . أورد بعضها الجبرتى فى مظهر التقديس[3] وقال إنها طويلة ، وهذا مطلعها : —

---

(١) التدبير هو منح الحرية للرقيق ، بعد وفاة سيده ، بتعليق الحرية على الوفاة .

(٢) ص ٧٤ — ٧٦ من الرسائل .

(٣) ظهر الورقة ١١٤ من المخطوط .

انهض، فقد ولت جيوش الظلام ... وأقبـــل الصبح ، سفير اللثام
وغنـــت الورق ، على أيكها ... تنبه الشّرب لشرب المـــدام
والزهر أضحى ، فى الربا ، باسما ... لما بكت ، بالطل ، عين الغمام
والغصن قـــد ماس بأزهاره ... لما غدت كالدر فى الانتظام
وعطـــر الروضَ مرور الصبا ... على الرياحـــين ، فأبرى السقام
كأنمـــا الورد على غصنه ... تيجان إبريز على حسن هام
كأنما الغدران خلجان أغ ... صان النقا ، والنهر مثل الحسام
كأن منظوم الزراجين[1] ياق ... وت غدا ، من نظمه ، فى انسجام
كأنمـا الآس عـــذار على ... وجنة خشف[2] قد علاها ضرام
كأنما الورقاء ، لما شـــدت ، ... تتلو علينا فضل هـــذا الأمام

وفى رسائله رسالة من عاشق إلى معشوق .

وله شعر لم يدونه الجبرتى منه هذه القصيدة التى قالها فى تهنئة صديق له كان نقيباً لأشراف القدس ، وأبعد عن النقابة ثم عاد إليها مرة أخرى ، وأولها :

الحمـــد لله على فضله ... قد رجع الحق إلى أهله
وآض روض الفضل ذا بهجة ... من بعد ما أشفق من محله
قد يطلب الحسناء من لم يكن ... كفؤاً لها ، للحمق فى عقله

ومنها :

قد يتساوى اثنان فى منصب ... وإنما التفريق فى سبله
ومفخر المرء بأفعـــاله ... لا بالذى قد مات من أهله
وقد يسود الشخص آباءه ... ويشرف الفرع على أصله
وقد نرى فرعين من دوحة ... تخالفا فى الحكم ، مع شكله
فالخل والخمر عصير ، وقد ... باين هـــذا ذاك فى فعله

---

(١) الزرجون شجر العنب ، بلغة أهل الطائف وقيل قضبانه .
(٢) الخشف ، بتثليث الخاء ولد الظبي ، أول ما يولد .

obeikandl.com

وله هذان البيتان فى وصف مدينة أسيوط . وكان قد أقام فيها زمناً هرباً من الطاعون :

سقياً لأسيوط ، ذات الظل والشجر ... ومرتع اللهو ، واللذات ، والزهر
منـــازل بصنوف العيش عامرة ... يلهو النديم بها فى مشتهى العطر

وللشيخ ، وقد عرفنا أنه تولى مشيخة الأزهر ، هـذا الغزل الذى أورده الجبرتى :

أعن المحب ثناك عنه وجيبه . . . ؟ ... أم قد دعاك إلى البعاد رقيبه . . . ؟
هجر الكرى ، لما هجرت ، وواصلت ... ـه شجونه ، وازداد فيك نحيبه
لم يجن ذنباً ، فى هواك ، وإنما ... قد كان ، بالهجران ، منك نصيبه
أفقرته من حسن وصلك ، بعد ما ... جادت عليـــك دموعه ، ونسيبه
وتركته ، والفكر منك مع النهـا ... ر ، سميره ، والسهد منـــك منيبه
لو لِـقّا عطفتك منـه شكاية ... رقّت ، ودمع طافح شؤبوبه
لرأيت جسما كالخلال ، من الضنا ... وطبيب قلب ، مقلتاه تذيبـــه

. . . . . .

أفلا رثيت لعـاشق لعبت به ... أيدى المنون ، ونازعتـــه خطوبه
أنت النعيم له ، ومن عجب تعذ ... به ، وتمرضه ، وأنت طبيبه . . . !

وهذه أيضاً ، وقد قالها فى مدح إبراهيم بن محمد على عند عودته منصوراً من الشام :

سمهرى يثنى ، أم غصن بان . . ؟ ... أم قوام ، دونه ، صبرى بان . . ؟
صان بالعسال[1] معسول اللمى ... وتهـادى ، هادماً ما أنا بان
يا مليك الحسن ، رفقاً بشجٍ ... كلما حاول كتم الشجو ، بان
مرج البحرين فيضا ، دمعـــه ... إذ رأى جفنيـــه لا يلتقيان

---

(١) العسال الرمح .

جاء ، لما جار سلطان الهوى طالباً ، من عادل القد ، الأمان
رب ساق ، وهو قاس قلبه عطفه ، منذ أدار الكأس ، لان
أهيف إن ماس تيهاً ، ورنا رحت منه بين سيف وسنان
كسر القلب ، وما كان التقى فيه ، من حين هواه ، ساكنان
... ...
يا نديمى قم ، وباكرها ، وطب هذه الجنـــة والحور الحسان
وأدر لى بنت كرم عتقت نورها الباهر يحكى البهرمان[1]

ولا نجد هذا الحديث كله عن العطار عند صديقه الجبرتى . وقد أكملناه من سيرة كتبها ابن له . وحفظها على مبارك فى الجزء الرابع من خططه .

الشيخ عبد الله الشرقاوى

وهناك شيخ للأزهر آخر ، هو الشيخ عبد الله الشرقاوى . وكان ، من كبار الرجال فى ذلك العصر ، ورئيساً ثلاث مرات للديوان الخصوصى الذى أنشأه نابليون وخلفاؤه . وقد كتب الشيخ رسالة فى تاريخ مصر سماها « تحفة الناظرين، فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين[2] » وجعل هذه مقدمتها : « إنه لما حل ركاب الصدر الأعظم ، والوزير الأفخم ، والدستور الأكرم ، حضرة مولانا الوزير يوسف باشا ، بلغه الله من المرادات ماشا ، بمدينة بلبيس فى شهر رمضان سنة ١٢١٤ بعد حصول الصلح بينه وبين طائفة الفرنساوية ، فى قلعة العريش ، وذهبت مع بعض علماء مصر لملاقاته ، طلب منى بعض الإخوان ، من أتباع ذلك الصدر الأعظم ، أن أجمع كتاباً متضمناً لواقعة الحال المذكور » .

ومن رسالة الشيخ الشرقاوى هذه ، تحفة الناظرين ، نستطيع أن نعرف مستواه الذهنى ، ومدى فهمه للتاريخ . كما نعرف ، فى ثنايا صفحاته ، قيمة إدراكه الوطنى ، وإحساسه ، أو رأيه ، فى أهل مصر .

---

(١) البهرمان نوع من الياقوت الأحمر ، وهو فارسى

(٢) طبعت هذه الرسالة فى المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨١ هـ فى ٧٢ صفحة من القطع الصغير .

أما إدراكه الوطنى فقد يبدو فى هذه الصفحات ، التى ذكر فيها خصائص أهل مصر ، وصفاتهم الغالبة ، والتى ننقل منها هذه السطور : « . . . وإن أهل مصر ، الغالب عليهم الأفراح ، واتباع الشهوات ، والانهماك فى اللذات ، وتصديق المحالات . وفى أخلاقهم رقة ، وعندهم بشاشة ، وملقة ، ومكر ، وخداع . ولا ينظرون فى عواقب الأمور . وعندهم قلة الصبر فى الشدائد . والقنوط من الفرج . وشدة الخوف من السلطان . ويخبرون بالأمور المستقبلة ، قبل أن تقع »[1] .

وقد يكون هذا الذى سجله الشيخ ، بعضه أو كله ، من صفات أهل مصر الغالبة . ولكنه ليس كل صفاتهم ، على التحقيق . وليس صفة ملازمة لهم على الدوام فى كل الأزمان . فهو لم يذكر لهم صفة حسنة طيبة ، فى مقابل هذه الصفحات ، المعيبة .

وأما مستوى ذهنه ، ومدى فهمه للتاريخ . فنحن مدركوه عندما نراه يقول — وهو يكتب التاريخ — إن أقصر الفراعنة أعماراً ، كانت أسنانهم مائتى سنة . وكان أطولهم عمراً ، سنه ستمائة سنة . وأن فرعون موسى كان قصيراً . طوله ستة أشبار . وطول لحيته سبعة . . ! وقيل كان طوله ذراعا واحداً . وأن هذا الفرعون بقى على عرش مصر خمسمائة سنة .

وأن بعض الفراعنة ، كان من الكهان . وكانت لهم أعمال عجيبة . فمن ذلك ، كما يقول الشيخ ، أن الملك الكاهن ، صيلم ، اتخذ مقياساً على النيل ، وأنشأ بركة من النحاس عليها عقابان ، ذكر وأنثى ، وفيها قليل من الماء . فإذا كان أول شهر يزيد فيه النيل ، اجتمعت الكهنة وتكلموا بكلام . فيصفر أحد العقابين . فإن كان هذا الذى صدر منه الصفير ، هو الذكر . جاء النيل عاليا . وإن كانت الأنثى جاء ناقصا .

---

(١) ص ٨ من الرسالة .

ومنها أن الملك الكاهن ، أعشامش ، عمل ميزاناً فى هيكل الشمس . وكتب على إحدى كفتيه كلمة « الحق » وعلى الأخرى كلمة « الباطل » ووضع تحت كل منهما فصوصاً . فإذا جاء إليه متخاصمان ، أخذ فصين ، وقرأ عليهما كلاما. وجعل كل فص منهما فى كفة . فتثقل كفة المظلوم . وترتفع كفة الظالم .

ومنها أن فرعونا من هؤلاء الكهان كانت له مرآة يرى فيها الأقاليم السبعة ، المخصب منها والمجدب . وينظر فيها فيرى ما حدث من الحوادث . وأنه أقام فى وسط المدينة تمثال امرأة جالسة ، وفى حجرها صبى ، كأنها ترضعه . فإن أصاب امرأة مرض فى جسمها ، مسحت ما يقابل هـــذا الموضع من التمثال . فتبرأ من ساعتها .

ووضع فرعون آخر من هؤلاء ، شجرة أغصانها من حديد ، ولها خطاطيف . فإذا قرب منها الظالم خطفته ، وتعلقت به . فلا تتركه حتى يعترف بظلمه .

وعمل فرعون آخر شجرة من نحاس . كلما قرب منها وحش لم يستطع الحركة ، حتى يؤخذ . فشبعت الناس لحما ، فى أيامه . ووضع على باب المدينة صنمين ، عن يمين ، وعن شمال . فإذا دخل المدينة رجل من أهل الخير ، ضحك الصنم الذى عن يمين الباب . وإذا دخل رجل من أهل الشر ، بكى الذى على اليسار .

أما الملك السادس ، فقد كان يجلس فى السحاب ، فى صورة إنسان عظيم .

وقد غاب عن ملكه زمناً ، حتى ظن أهل مصر بلا فرعون . ثم رأوه ، فى صورة الشمس فى برج الحمل . فكلمهم ، من الشمس ، وأعلمهم أنه لا يعود إليهم . وأن يولوا فلاناً بعده .

وضرب فرعون آخر درهما ، إذا وضع فى كفة الميزان ، ووضع فى كفته الأخرى ما يريد أن يشتريه المشترى . فإن كفة هذا الميزان لا تشيل أبداً ، مهما وضع فيها من هذا الشىء المباع . ثم قال الشيخ ، إن درهما من هذه الدراهم ، وجد فى كنوز مصر ، فى أيام بنى أمية .

هكذا يكتب الشيخ عبد الله الشرقاوى ، التاريخ . وقد كان شيخا للأزهر ،

ومقدما بين علماء عصره . ورئيساً مختاراً للدواوين الذى حكم الفرنسيون مصر ، عن طريقها .

وهذه النماذج التى ذكرتها ، وقصدت أن أطيل ، بعض الإطالة ، فى سردها ، لا تدل على مستوى الفهم ، والتفكير ، عند الشيخ وحده . بل هى ذات دلالة ، إلى حد كبير ، على المستوى الفكرى . لعلماء ذلك العصر .

ومن المفيد أن نعرف أن للشيخ عبد الله الشرقاوى مؤلفات ، وكتب فى فقه الشافعية ، وشروح ، وحواش . تعتبر من أكبر المراجع المتداولة عند أهل الأزهر . والمقررة للتدريس فيه .

وفى كتاب تحفة الناظرين هذا ، أخطاء نحوية ، ولغوية يدركها من يقرؤه . كما حفظت وثائق الحملة الفرنسية نماذج من توقيعات الشيخ عبدالله الشرقاوى وتقريرات بخطه ، ومن إنشائه . كان يكتبها على ما يقدم للديوان من شكاوى ، وهى ركيكة الأسلوب . سوقية العبارة . فيها من الأخطاء اللغوية ما يخجل منه طلبة المدارس الآن[1] .

وقد رأينا فى فصل « الأزهر والعلماء » أمثلة أخرى من شعر الشعراء منهم ، فى ذلك العصر[2] .

حسن البدرى الحجازى

ومن الشعراء الكبار ، الذين ترجم لهم الجبرتى ، الشيخ حسن البدرى الحجازى . كان عالماً ، شاعراً ، ملازماً للقرائة والدرس ، قليل الخلطة بالناس كثير النقد لأهل عصره . نظم أرجوزة فى التصوف نحو ألف وخمسمائة بيت ضمنها أمثالاً ، ونوادر ، وقصصاً . وألف ديواناً على حروف المعجم ، سماه « تنبيه الأفكار ، للنافع والضار » تعرض فيه لأخلاق الأشرار من الناس ، وانحراف طبائعهم . وله رسالة فى الأشكال المنطقية . ورسائل أخرى فى الوضع ، والنحو . والمنطق . وقد استشهد الجبرتى بكثير من شعره فى مواضع كثيرة من كتابه . وتوفى سنة ١١٣١ هـ

---

(١) نشر الأستاذ أحمد حافظ عوض صورة فتوغرافية لهذه التوقيعات فى كتابه « فتح مصر الحديث » ص ٣٠٤ — ٣٠٨ نقلها عن وثائق الحملة الفرنسية .

(٢) فى الجزء الثانى من الكتاب .

وللشيخ حسن البدرى الحجازى شعر يدل على أنه كان غير خاضع لما كان يخضع له الناس فى عصره من أفهام وأوهام . ولو أن أسلوبه ردىء .

فمن ذلك هذه القصيدة ، التى يتعرض فيها للجاهلين من مدعى الولاية والصلاح . ولصنف من « العلماء » :— وقد قالها فى الشيخ على البكرى .

ليتنا لم نعش الى أن رأينا ... كل ذى رجنّة ، لدى الناس قطبا
علما ، هم به يلوذون ، بل قد ... تخذوه ، من دون ذى العرش ، ربا
إذ نسوا الله ، قائلين : فلان ... ، عن جميع الأنام ، يفرج كربا
وإذا مات يجعلوه مزارا ... وله يهرعون ، عجما وعربا
بعضهم قبّل الضريح ، وبعض ... عتبَ الباب قبلوه ، وتربا
هكذا المشركون تفعل مع اص ... نامهم ، تبتغى بذلك قربا
وألو العلم والقرآن ، عليهم ... صُبَّ سوط العذاب ، والمقت ، صبا
إذ رموهم بالفسق ، والزور والجو ... ر ، وظلم العباد ، سلبا ونهبا
كل ذا من عمى البصيرة ، والوي ... ل لشخصى أعمى له الله قلبا
والحجازىّ ، من سمى حسنا ، ين ... ظر ما خالف الشريعة ، صعبا
فالحذار ، الحذار من فعل أهل ال ... جهل ، لو عالما يدرس كتبا
جعل العلم فخّ صيد لدنيا ... ه ، فساوى ، فى صنعة السوء ، كلبا
لا ، بل الكلب منه خير ، إذ الكلا ... ب عديم العقاب ، فى يوم عقبى

وله هذان البيتان فى بعض العلماء :—

رب قصير فى الورى ، لحيته ... طوّلها الله ، بلا فائدة
كأنها بعض ليالى الشتا ... طويلة ، مظلمة ، باردة

وكان الشيخ الحجازى كثير التعرض لهذا الصنف من الناس ، يذكرهم بهذه الأوصاف فى كثير من شعره . كهذه القصيدة القاسية ، فى مدعى الولاية والتصوف :—

إحذر أولى التسبيح والسبحة ... والصوف ، والعكاز ، والشملة
والدّلق ، والأبريق . لا سيما ... شيوخ إبليس ، أولى الشمرة

obeikandl.com

حوت أباليس بتمـــداد ما حوت شـــمورا ، بل بلا عدّة
والمكرُ ، فات الحصر كالبحر ، بل يعدّ فيـــه البحر كالقطرة
فصار إبليس لهـــم تابعـــا يقـــول : يا للمون والنجدة
ممـــا حويتم علمونى ، فما لى عنكمَ ، فى المكر ، من غينة
لكم قيادى ، وانقيادى ، وما مثلكم فى النـــاد والندوة
بملء لافواه ينـــادون : يا أهل الوفا ، يا صاحب النوبة
ياشـــافعى ، ياقطب ، يارافعى يا للرفاعى ، يابنى الرفعـــة
ياســـيدى أحمد ، يا أوليا ء الكون ، عينونا على الحملة
ذو كرّة ، والمـال يبغون ما لهم ، بغير المـال ، من بغية
لكنهم ، فى الفسق ، أرقى الورى كما ترى ، من غـير ما مرية
اتخـــذوا المرد مراد لهـــم تهالكوا فيهم على الهلكة

وهى قصيدة طويلة ، قسا فيها على هؤلاء المدعين قسوة بالغة ، ولكنها صادقة مخلصة . ووصفهم وصفاً يثير النفس . وهذه القصيدة نفسها ترسم صورة تستحق التأمل ، لناحية من نواحى الحياة الاجتماعية ، والدينية فى هذا العصر .

ونوع آخر من أنواع الشعر ، أكثر منه البدرى الحجازى . وهو شعر النصيحة ، كهذه القصيدة التى مطلعها : —

أخى فطنا كن ، واحذر الناس جملة ولا تك مغرور الظنون الكواذب

وقوله : —

كن جار كلبٍ ، وجار الشّمرة اجتنب ولو أخاً لك ، من أم ، برى ، وأب

و : —

حذار حـذار من قرب الأقارب فهم صـــلّ الأفاعى ، والعقارب

و : —

إذا امرأة ، يوما خطبتَ ، فلم تجب فدعها ، ولا ترجع لخطبتها ، العمرا

وغيرها كثير .

وله كذلك شعر يبتسم القارئ حين يقرؤه ، لما فيه من دلالة على ذوقه .

الذى هو سمة من سمات أهل القاهرة . فهو ، مثلا ، يقول هذه الأبيات يشكو بها ما يرى من قذارة بعض الأحياء التى يعيش فيها الفقراء من « أولاد العرب » . وهى أبيات تصلح للاستشهاد ، فى بعض هذه الأحياء ، إلى الآن : —

حارات أولا العـــرب سبعاً حوت ، من الكرب
بولاً ، وغائطا ، كذا ترْب ، غبارٌ ، سو أدب
وضجة . وأهلهـــا ، مثل عفـــاريت الترب

وله كذلك ، شعر يسجل فيه كبير الأحداث التى وقعت فى عصره . كهذه القصيدة[1] التى أولها :

أيها الإنسان ، دع عنك الدَّغَش لا تكن ممن عباد الله غش

وهى قصيدة طريفة ، أرخ فيها وقائع خليل باشا وإيواظ بك الكبير ، ويوسف بك الجزار . وجعل ختامها هذا البيت ، مؤرخاً به : —

والحجازىّ حسن قـد أرّخا يوسف الجزار ، كأسٌ قد قَرَش

يريد أنه شرب كأس الموت .

الأدكاوى

ومن الشعراء الذين ترجم لهم الجبرتى ، الشيخ الأدكاوى . وقد عرفه بالعمدة الفاضل الكامل ، والأديب الماهر ، الناظم الناثر الشيخ عبد الله بن عبد الله بن سلامة الأدكاوى المصرى ، الشهير بالمؤذن . ولد بأدكو ، بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ ، ثم قدم القاهرة فحفظ القرآن وحضر دروس العلماء ، وأدرك الطبقة الأولى . كالسيد على برهان زادة ، نقيب الأشراف ، وكبير أدباء عصره والشيخ الشبراوى ، والشيخ الحفنى . وكان ، إلى تبريزه فى الشعر والنثر ، جيد الخط ، له فيه قاعدة اشتهرت باسمه ، وتدارسها الناس فى مصر .

وقد صار ، فى الشعر ، والنثر ، والخط ، أوحد زمانه ، حتى توفى شيخه الحفنى ، فتغير حاله ، واعترته الأمراض ، ومرض أياما ثم مات ، فى يوم الخميس ، الخامس من جمادى الأولى سنة ١١٨٤ ، ودفن قريباً من قبر شيخه الحفنى .

---

(١) ص ١١٣ — ١١٤ ، الجزء الأول من الجبرتى .

وشعر الأدكاوى هذا ، أرق ، وأجود ، وأصح من شعر البدرى الحجازى .

وهذه نماذج من شعره ، وهو ، كأدب ذلك العصر كله . حافل بالجناس والتورية والاقتباس . وما يشبه ذلك من المحسنات : —

سل الله ، ذا المن العظيم ، ولا تسل سواه ، فإن الله يعطيك ما تبغى
ومهما تنل مارمته ، يا أخا الحجى من الأمل المطلوب ، فاقنع ، ولا تبغى

وله هذه القطعة اللطيفة من الشعر . وفيها تعبير كان يظن أنه من مبتكرات عصرنا . وهو التعبير عن الكتاب والأدباء ، بأنهم أرباب الأقلام أو حملة الأقلام :

وعصبة سوء تجافيتهم ونزهت نفسى عن دائهم
لحانى قوم ، على تركهم وقالوا : ألست من أكفائهم ؟
فقلت لهم : عذرنا واضح على ترك ساحة أحيائهم
فنحن نعيش بأقلامنا وهم عائشون بأقفائهم ... !

وللأدكاوى مبتكرات فى الشعر ، منها هذا الذى سماه « وسع الاطلاع » وقد قسمه أربعة أقسام ، أولها أن يكون أول كل كلمة ، أولا لأختها . ومنه يقول :

بهى بدا بالواصل ، برّاً بصبه بزورته بانت بلابل باله

وثانيها أن تكون كل كلمة مكونة من حرف منقوط ، وحرف عاطل ، سوى الناقية . ومنه يقول :

جميل ، بديع ، جل ذاتا بهيّة به زدت حباً ، فاتك بجماله

وثالثها أن يكون البيت مركباً من كلمات ، إحداها منقوطة والأخرى عاطلة ويسميه الأخيف ومنه يقول :

جننت ولوعاً ، فى هواه شغفت كم فتنت ، عساه يجتنى لكماله

ورابعها أن تكون جميع الكلمات منقوطة ، ومنه قوله :

شفيق ، شقيق ، شيّق ، شنب ، شنى بغنج . بجفن شفّنى بنبـــاله

وله شعر مما لا يستحيل بالانعكاس . أى أنه يقرؤ من آخره لأوله كما يقرؤ من أوله لآخره ، فلا يتغير . كالشطر الثانى من هذا البيت :

بانعكاس قولنا لم ينعكس ألغ من نمّ ، فمن نم غلا

وله شعر التزم فيه أن تبدأ الكلمة بالحرف الذى ختمت به سابقتها ، كهذه الشطرة : تأمل لما أبداه هذا المهفهف .

وهذا ، كما ترى ، لعب سخيف ، وعبث ثقيل . استحال به الشعر إلى كلام معجم مرذول .

ومن الغريب أن الأدكاوى ، الذى يشتغل بهذا اللون من السخف المرذول ، يدعو معاصريه إلى أن يكونوا غير متعصبين لنوع من الشعر ، ولا لأحد من الشعراء ، أو عصر من العصور . كأنه رجل حر الفكر ، غير مقلد ، فهو يقول :

كن للمعاصر خير ناصر كم للأواخر من مفاخر
لا تحقرن جديدهم كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب ، للأوا ئل ، يافتى ، أو للأواخر
من كان منهم مبدعاً فاعقد عليه من الخناصر

ولعله كان يرى هذا اللعب السخيف ، الذى كان يخترعه ، نوعاً من الإبداع .

ولكنا نجد للأدكاوى ، شيئاً غير قليل من شعر لا بأس به كهذين البيتين ، وقد قالها بعد أن شفى من مرض أشرف فيه على الموت :

قد حصل اللطف فى القضاء وقد أزال ربى ما كنت أخشاه
ولست أشكو لغيره أبدا فالحمد لله ، ليس إلا هو

وهذه الأبيات ، التى قالها فى الراح والساق الجميل ، المدلل ، وهى تخميس أبيات أخرى لابن منجك .

طاف بالراح مشتهانا المدلل ينثنى ، مثل بانة تتميّل

قلت ، مذ زمزم الكؤوس ، وأقبل

نتفــــداك ساقياً ، قد كساك الـ حسن، من فرقك المضيء ، لساقك
في معانيك حار فكري ، ووصفي فلأى الصفات أبدى ، وأخفى
وعجيب ، من حيث تبدو لطرفى .
تشرق الشمس من يديك ، ومن في ـك الثريا ، والبدر من أطواقك

وهذين البيتين :

قالوا : تغربت يا هذا ، فقلت لهم : دعوا ملامى ، فإنى غير مستمع
إذا تغربت ، والدينار يصحبنى ، لم أدر ما غربة الأوطان ، وهومعى

وهذه الأبيات ، في الغزل :

بقبـــلة جاد حبى وكان منى يفــــرّ
فقلت : يا قلب أبشر فأول الغيث قطر

و :

نحن قوم إذا رأينا مليحاً جامعاً في جماله كل بهجة
وأردنا بالاحتيـــال ، نراه ، نجعل الشرب ، للتفرج ، حجة !

وللأدكاوى بعض من الشعر الماجن . منه ما أفحش فيه ، حتى خرج عن الحد ولا أستطيع أن أنقله في هذا الكتاب . فهو مما لا تجيز آداب الناس ، ولا يبيح القانون ، أن يكتب ويذاع . هو مما نسميه الآن بالأدب المكشوف .

ولكن بعضاً من هذا الشعر ، فيه هزل وليس فيه فحش ، أستطيع أن أنقل شيئاً منه ، كهذه الأبيات التي قالها في الصداقة الزائفة :

إذا المرء لم ينفعك ، والدهر مقبل عليه ، ولم تخطر عليـــه ببال
فصوّره ، في وسْط الكنيف ، بفحمة وشرشر عليه ، عند كل مبال

وقد وضع لها بعد ذلك تخميساً فقال :

إذا المرء لم ينفعك ، والدهر مقبل عليه ، بما قد كان يرجو ويأمل
وأضحى ، بثوب التيه والكبر ، يرفل وصــار يرى منك المودة تثقل
عليه ، ولم تخطر عليه ببــال

فصوره ، فى وسط الكنيف بفحمة وكن ، حالة التصوير ، فى وقت ظلمة
ومر كلّ مبطونٍ وصاحب تخمة على رأسه يخ . . . ، بعزم ، وهمة
وشرشر عليه ، عند كل مبال

وهذين البيتين : —

هيأ البلانُ موسى خلوةً تحيي النفوسا
قيل : — ما تفعل فيها . . ؟ قلت : — أستعمل موسى . . !

وقد وددت لو أنى أستطيع أن أنقل هذا الشعر الماجن كله . فهو يصور هذه الروح القاهرية المصرية الخالصة ، فى ذلك العصر . وهو صورة حية من الشعر ، ومن حياة الناس ، أو الأدباء ، وأهل الترف ، إذ ذاك . ولكن يستطيع القارئ أن يجده فى صفحات كثيرة من الجبرتى ، وخاصة فى تلك التى ترجم له فيها ، عند وفاته[1] .

وقد ذكر الجبرتى أن له مقامة فى المجون ، إسمها المقامة « القمذية » . ولكنه لم يدونها ، وليته فعل ، ولم يقل لنا معنى هذه التسمية .

واللأدكاوى مقامات أخرى ، أورد الجبرتى واحدة منها ، اسمها المقامة السكندرية . وقد التزم فيها أثقل القيود ، حتى صعب فهمها ، وأصبحت ثقيلة باردة . كما ألف كثيراً من الكتب . منها ، غير ديوان شعره ، بضاعة الأريب ، فى شعر الغريب . وقد تناول فيه تراجم بعض معاصريه من أهل الأدب والعلم ، ومنها الفوائح الجنانية ، فى المدائح الرضوانية ، كتبه فى مدح الأمير رضوان الجلفى ، وسجل فيه ما قاله غيره من المدائح فى هذا الأمير . والدر الثمين ، فى المحاسن والتضمين وتخميس بانت سعاد ، وهداية المتهومين ، فى كذب المنجمين وغيرها .

وروى له الجبرتى بعضاً من الشعر ، جعل بعض أشطره جملا فارسية . وقد يدل ذلك على معرفته هذه اللغة . وقد لا يدل على ذلك — بل هى كلمات عرفها ،

---

(١) ص ٣٥٤ — ٣٦٥ من الجزء الأول .

وفهم مدلولها من أصدقائه . أو مجالسه . ثم استخدمها فى هذا الشعر إظهاراً للصنعة والمقدرة .

ولكن ذلك، على أى حال ، يدل، إلى جانب ما أسلفنا من قبل، على أن اللغة الفارسية كانت ، إلى جنب اللغة التركية ، لغة غير مجهولة فى المجتمع المصرى ، أو فى الحياة الأدبية لهذا العصر .

وهذه أبيات مما ضمنه الأدكاوى اللغة الفارسية : —

وخود من بنات الفرس ألقت محبتها لهيبا فى حشائى

وقد ملَّكتها رقى وحلَّت محل السر ، منى ، والوفاء

تعاملنى بما يسبى فؤادى وتمنحنى سرورا باللقاء

سطا فينا النوى ، فأتيتها كى أمتع ناظرى ، قبل التنائى

وقالت لى ، وقد أذرت دموعا ، على الخد المكلل بالبهاء

بألفاظ تحاكى عقد در «جه بودى كر نبودى آشنائى»(١)

وكانت بين الأدكاوى والشيخ عبد الرحمن العيدروسى مراسلات شعرية ، نجدها فى ديوان هذا الأخير .

الشاعر الظريف الحجازى

وقد امتاز النصف الثانى من هذا القرن ، الثانى عشر الهجرى ، بهذا النوع من الشعر الظريف الماجن ، الذى رأينا بعضا منه فى شعر الشيخ عبد الله الأدكاوى، فى الصفحات السابقة .

فقبل سنتين من وفاة الأدكاوى ، مات شاعر آخر ، يشاركه فى هذا الظرف،

(١) يمكن أن يترجم الشطر الفارسى إلى اللغة العربية بهذه الكلمات « ماذا تكون إن لم تكن عارفاً أو خبيرا ؟ . . . وهو معنى يتلاءم وسياق الشعر ، ويكمل مدلوله .

obeikandi.com

وهذا المجون . كما يشاركه فى صفات أخرى . وكان هذا الشاعر شريفا علويا . حاكما على المدينة .

ترجم له الجبرتى بأنه « وحيد دهره فى المفاخر ، وفريد عصره فى المآثر ، نخبة السلالة الهاشمية ، وطراز العصابة المصطفوية . السيد جعفر بن محمد البيتى السقاف باعلوى الحسينى . أديب جزيرة الحجاز »

وقد ولد جعفر هذا بمكة ، ودرس على علمائها ، حتى أجازوه فى أن يلقى دروسا ، فألقى فى مكة دروسا . ثم تنقلت به الأحوال حتى تولى وظيفة الكتابة عند حاكم مدينة ينبع ثم صار حاكما على المدينة . وتوفى بها ، فى سنة ١١٨٢

أنشأ هذا الشاعر العلوى كثيرا من الشعر ، فى المدح ، والغزل ، والمراسلات . ولكن الجبرتى لم يحفظ لنا غير طائفة يسيرة من شعره . وقليل من المقامات التى أنشأها .

أما مقاماته ، فليس فيها سوى السجع المتكلف ، الثقيل ، المصنوع ، وإن كان بعضها يحتوى قصة ظريفة هازلة . كما يحتوى شعرا ظريفا أيضاً . وأما شعره ، فهو سمح ، سهل ، يسير . نستطيع أن نضعه حيث يوضع الشعر الجيد ، أو الحسن ، بالقياس إلى ما نجد من شعر ذلك العصر .

فشعر جعفر السقاف العلوى ، حاكم المدينة ، وأديب جزيرة الحجاز ، من أجود ما نجده من ذلك الشعر الذى سجله الجبرتى ، لمن ترجم لهم ، أو روى لهم شعرا . ويقول الجبرتى إن الناس كانوا يتهافتون على شعره ، ويبادرون إلى حفظه ، وترديده .

ومن شعره هذه القصيدة : —

حيى بكأسك لى ، مع نسمة السحر ، وسلسلى : الراح ، من نحرى إلى سحرى
حيى براحك ، يا روحى ، على جسدى ، أفديك بالنفس ، يا سمعى ، ويا بصرى
هبى بشمسك ، فى ظل الشباب ، وفى ظل الغصون ، وفى ظل من الشعر
هبى وشق « قميص الغى » من قبل فالراح شقت قميص الليل من دبر

ووسطى بيننا ، فى الشرب ، واسطة من كأس ثغرك ، هذا الطيّب ، العطر
خداك ، والروض ، أزهار مضاعفة وذى الدرارى ، وذى الكاسات ، كالدرر
ناهيك من جودة التجنيس بينهما ما أطيب الشرب ، بين الزهر والزهر
صُفى قنانيك ، حول الكأس ، راكمة وحيّ على ، وأقيمى الوتر ، بالوتر
دنياك معشوقة ، والخمر ريقتها . يا ضيعة العمر ، بين السكر والسكر
ردى عهودك لى ، كى أشتكى حزنى إلى ربيعىَ ، ما كابدت ، فى صغرى

وهذا شعر ، كما ترى ، حسن ، إذا راعينا مستوى الشعر ، وطاقة الشعراء ، فى ذلك العصر . وهو شعر طلق ، رقيق . فيه كثير من الحرية . وفيه روح الترف والنعيم ، وما هو جدير أن يصدر عن شريف كان أميرا على المدينة .

ومن شعر جعفر ، أيضا ، هذه القصيدة ، يمدح فيها صديقا : —

تلك رؤيا ، قصصتها لك ، فانظر لىَ ، فيها ، التأويل ، والتعبيرا
وعرضنا فارّ حظ عبيط[1] وأفضنا ، لرأيك ، التدبيرا
ولك الأمر فيه ، حلا ، وعقدا ربما عاد ثابتاً إكسيرا
صحّ قلب الميان فيه ، وأضحى جابرٌ ، قلبه ، به ، مكسورا
ثم قلنا للكيمياء سلام قد كفينا التصعيد ، والتقطيرا
وفرغنا ننظّم الدر من مع نى مساعيك ، غدوة وبكورا
واشتغلنا ، مع المحبين نتلوا لك فرقان مدحةٍ ، وزبورا
فنساق من تلك كاسا دهاقا كان ، فينا ، مزاجها كافورا
شيماً ، لو تجسمت ، منك كانت هى ، للناس ، جنة وحريرا

. . . . . .

وإذا ما رأيت ثمّ من المجـ ـد ، مقاما ، رأيت ملكا كبيرا

---

(١) من معاني « عبط » ، فى القاموس ، الداهية تصيب الرجل ، من غير استحقاق وعبط الذبيحة نحرها من غير علة .

أبدا ، فى مواكب الفخر تستعـ ـبد كسرى الملوك ، أو سابورا

. . . .

يا لأنسان رفعة ، أنت ، فينا يرجع الطرف ، إن رآك ، حسيرا
بيت حبى ما زال فيك مدى الد هر ، دواما ، مشيدا ، معمورا
فتقبل ، إليك ، حور معان قد سكن الألفاظ ، منى ، قصورا

. . . .

وابق ، واسلم ، كما تشاء المعالى تبق ذكرى خير ، وتفنى الدهورا
أبدا ، كلما خصصت بمدح وسمى ، نحوك ، القريض ، سفيرا

ونحن نرى فى هذه القصيدة شيئاً من الثقافة العلمية . فهو يذكر ، من مصطلحات الكيمياء ، الفلز ، والأكسير ، ومن تجاربها التصعيد ، والتقطير ، ويذكر اسم جابر بن حيان ، الكيميائى الكبير ، ليستخدمه فى المقابلة بالمكسور .

وللسيد الشريف العلوى شعر التزم فيه التشبيه ، والقلب والتبديل : والكناية : والترادف ، والأدخال والألغاز . إلى آخر هذه المحسنات التى كانت تعجب الذوق ، وتروق لكثيرين من شعراء ذلك العصر ومتأدبيه . ولكن له ، إلى جنب ذلك شعرا مرحا ، لطيفا ، يكاد أن يكون باللغة العامية المصرية . أو هو منها قريب . فمن ذلك هذه القصيدة التى بعث بها إلى صديق له ، يدعوه إلى مجلس غناء وشراب :

يا ابن ودى ؛ وصديق حال ما تقرا البطاقة
إلبس العمة ، واحضر لا تكن عندك عاقة
واركب الأدهم ، واركض واعطه منك الطلاقة
واكتم الأمر ، وبادر غفلة ، دون الرفاقة
كمل الوفق الثلاثى ولنا ، نحوك ، شاقة
فلدينا كأس راح واصطباح ، واغتباقة
ومليح أخجل الأغصا ن ، لينا ، ورشاقة
ومليح يشتهى « البو س »(١) ، إن شئت اعتناقه

---

(١) « البوس » التقبيل . فارسى معرب .

وقد ذكر الجبرتى أنها طويلة ، ونقل منها ، بعد هذه الأبيات ، أربعة أخرى ، من الأدب المكشوف .

وله أيضاً هذه القصيدة . وفيها من المرح ، واللطف ، وخفة الروح ، شىء غير قليل . وفيها من السخرية بأهل النحو والصرف والعلة شىء أيضاً :

قد خلينا أمس ، لكن ... بقيت عندى خبلة
فاسقنا ، واشرب إلى أن ... نبق ، فى المجلس ، مثلة
ما يلذ السكر حتى ... يمضغ السكران نعله . . !
ويرى البغلة ديكا ... ويظن الفيل نملة
أسمع القسيس قد د ... قّ ؛ لشرب الراح ، طبلة
غفلة الواشى اغتنمها ... لا تكن عندك غفلة
إن تأخرت ، قليلا ، ... كتبت سبعون زلة ... !
خل عنى : قام زيد ... قعدت هند وعبلة
ضربت ، تضرب ، ضربا ... كل ذاك الصرف ، علة
حرت ، فى يعقوب ، والرم ... لى ، متى أعرف رمله ..؟

وله هذان البيتان ، فى تفضيل نعمة العقل :

فضلك رزق زائد ، فوق ما ... ترزقه ، مع سائر الخلق
لأنه لا بد من بلغة ... ثم الحجا رزق على رزق

ومن شعره ، فى الأصدقاء والناس :

ومن تك قد جربته ، فحمدته ... فعضّ عليه ، بالنواجذ أجما
ولا تتحول عن أخ قد عرفته ... لآخر ، ما جربته ، تندما معا
وما الناس إلا كالدواء ، فبعضه ... شفى وكفى ، والبعض آذى ، وأوجعا

وقد رأينا أنه كان كاتبا لحاكم ينبع ، وله فى هذه المدينة قصيدة لطيفة . وصف فيها ما رأى فى المدينة من أنواع البعوض ، والبق ، والفيران ، والبرغوث ، والقمل وذكر ما لقيه من هذه الحشرات ، من الأذى . وما كان يشرب ، فى ينبع ، من « ماء الزلاع » الذى هو معجون العلل ، والوباء ، والسقم . وما كان يجده فى طعامه من نمل وذباب . حتى أعضاء الفأر . كان يجد منها ، فى الطعام ، أذنه وكراعه .

ويذكر أيضاً ما كان يجد من كريه الرائحة ، حتى ودّ لو جدع أنفه . وهذه هى القصيدة ، وقد عارض فيها قصيدة قديمة معروفة ، لفتح الله النحاس :

رأى البق ، فى كل الجهات ، فراعه ... فلا تنكروا إعراضه ، وامتناعه
ولا تسألونى كيف بتّ ، فإننى ... لقيت عذاباً ، لا أطيق دفاعه
نزلنا بمرسى ينبع البحر ، مرة ... على غير رأى ، ما علمنا طباعه
نقارع ، من جند البعوض ، كتائبا ... وفرسان ناموس ، عدمنا قراعه
فلو عاينت عيناك ميدان ركضه ... رأيت جرىّ القلب ، فيه ، شجاعه
وجنداً ، من الفيران ، فى البيت كامناً ... متى وجدوا خرقاً ، أحبوا اتساعه
ومن حط شيئاً فى جراب وبطة ... فما رام ، عند الفأر ، إلا ضياعه
وسُرْبة[1] قل تنبرى ، إثر سربة ... خفافاً ، إلى مص الدماء ، سراعه
ينازعها البرغوث لحمى ، فليته ... رضى بتلافى ، واكتفينا نزاعه
فلو يجد الملسوع ، من عظم ما به ... من الصرخ درعا ، لاستخار ادراعه
فرب قميص كان شراً من العرى ... إذا ضمه الملتاع ، زاد التياعه
كأنى وصىٌّ للبراغيث ، قائم ... أقيت له أيتامه ، وجياعه
إذا شبع الملعون ، مجّ دماً على ... ثيابى ، فلا أحيا الإله شباعه
فما رشنا بالدمّ ، إلا لسانه ... ولم تر عينى مكره وخداعه
سلوا عن دمى سارى البعوض فإننى ... علمت ، يقيناً ، أنه قد أضاعه
فلله جلد صار ، بالحك ، أجربا ... أخاف عليه ، يا فلان انقشاعه
ونتن « كنيف » كلما هان عرفه ... أحاط به واشى الهوى ، فأذاعه
بخار كنيف ربما جلب العمى ... وسبب ، للآتى إليه ، انصراعه
فلو كان يجدى المرء تجديع أنفه ... لود ، الذى يأتى الكنيف ، اجتداعه
ولو كان قطع الأكل والشرب نافعاً ... لأثر ، بين العالمين ، انقطاعه
وكم قد أكلنا نملة ، وذبابة ... وقأراً ، بلغنا أذنه ، وكراعه

---

(١) جماعة : وفى القاموس : من معانى السربة ، أنها جماعة الخيل ، مابين العشرين إلى الثلاثين .

وماء زلاع ، صار معجون علة ... شربناه كرهاً ، وادخرنا زلاعه
وباء ، وسقم ، لا محالة ، كله ... ونرجو ، من الله العظيم ، ارتفاعه
... ...
إذا رنّم الناموس ، حولى ، أعلّنى ... وصدع قلبى ، بالسجوع ، وراعه
وإن مص من دمّى وطار ، تبعته ... إلى فائت منه ، أرجّى ارتجاعه
عدمت غناء ، مثل أنغام سجعه ... فما كان أشنى سجعه وابتداعه
وقد نفدت فى دفعه كل حيلة ... ولو كنت بالحسنى ، طلبت اندفاعه
فيا لأصيحابى ، اقتلونى ومالكا ... فقد مد نحوى ، مفسد البق ، باعه
وأصبحت ، فى دار المشقة والعنا ، ... أخالط أوغاد الورى ورعاعه

ثم يقول ، من هذه القصيدة ، فى وصف بعض هؤلاء الذين كان يخالطهم من الأعراب ، هذه الأبيات : —

وكلباً ، من الأعراب ، يعوى كأنه ... يريد ، إذا لاقى الأمين ، ابتلاعه
فلو صاح ، فوق الصخر ، خرّ لوقته ... وأبصرت ، من ذاك الصياح ، انصداعه
براه إله الخلق ، للناس ، نقمةً ... وقدّ ، من الصخر الأصم ، طباعه
فلا رحم الرحمن أرضاً يحلها ... وباعد عنا ، بالسنين ، انتجاعه
ومن كل جبار عنيد ، يرى الورى ... عبيداً لديه ، والبقاع بقاعه
شقىّ ، عصى الرحمنَ فى كل أمره ... ومال إلى شيطانه ، وأطاعه

ثم يقول فى ختام قصيدته هذه : —

سلونا عن الدنيا ، فكل نعيمها ... متاع غرور ، لا يديم متاعه
وما اعتضت من كونى أديباً ، وفاضلا ... لدى الناس ، إلا قوله ، وسماعه
ومن كان يرجو ، فى الأمانة ، مغنماً ... فخلوا له أوضاعه ، وخراعه . . !
وقولوا له : — هذاك ينبع حاضر ... لمن رام يبلو ضيره ، وانتفاعه
فكم كاتب أفنى اليراع كتابة ... وملّ ، وألقى ، فى التراب ، يراعه
وكم بدوى داسه ، فوق بطنه ، ... ومزق ، ما بين الأنام ، رقاعه

فمن جاءكم منا ، مع الليـــل ، شاردا ... فـــذاك لهول واقعٍ فيه ، راعه
ومن يمتنع عن خدمة ، مثل هذه ، ... فـــلا تنكروا إعراضه وامتناعه
فما يكسب الـــكيال ، إلا غباره ... ولا الـكاتب المسكين ، إلا صداعه ..!

وفى مقامة من مقاماته ، يتخيل أنه صار تاجراً عظيما ، جزل ربحه ، وكثر ماله . فأراد أن يبذل ، من فضل هذا المال ، لأهله ، وأصحابه ، وجيرانه . فطفق يدور بين بيوتهم ، ينشد هذا الشعر اللطيف : —

ألا بشرى لجـــيرانى ... مع الأصحاب والأهل
فقد جاد لنا المـــولى ... محلُّ الجود ، والفضل
ولا بد لأصحـــابى ... من الإنعام ، والبذل
لهم منى ، مـدى الأيا ... م ، فضل الزاد ، والأكل
وكل يكتسى مـــنى ... على الهيئة والشكل
من الفرو ، إلى الجو ... خة ، للعمة ، والنعل
وأيضاً خلعة ، أعطى ... من الرأس إلى الرجل
فسجِّل ، يا غلام الخ ... ير ، خيراتى ، على الكل
وناد الأهل ، والجيرا ... ن ، وابعث نحوهم رسلى
وخاطبهم ، إذا اجتمعوا ... بدق الزمر ، والطبل
وقل : هذى مضايفنا ... وهذى ، قِدرنا ، تغلى
من اللحم إلى الرز ... إلى السمن ، إلى البقل
وأنواع من الشو ... ى ، والمغلى ، والمقلى
وأجناس ، من الزربا ... ج ، بالمشمش ، والخل
ولا تخرج بأضيافى ... إلى الشمس ، من الظل
وأما النقد ، فالحا ... ضر ، عامود ، وفندقلى
ومن يطلب ، زنجرنا ... ه ، إن شاء ، يزنجرلى
فدعنى ألبس التاج ، ... بهـذا المجلس الحفل
وإن كنت تنحنحْت ... أنا ، يا عبد ، نَعَمْ لى

ترانى مقصـــد الحـاجا ت ، لا بعدى ، ولا قبلى
ترانى أقتل الأقـــرا ن يوم الحرب . من مثلى ؟
فإن كنت تريد الحـــر ب ، هذى الخيل ، ياخلى
فقل ما شئت فى قـــولى وقـل ما شئت فى فعلى
وإن كنت توضـــأت على قصد الثنا ، صلى
وصف جودى، وصف عودى وصف سيفى ، وصف نصلى
فهـــذا الحبس ملآن من الأعـداء ، كالنمل
وهـــذا الخير مطروح على الطرقات والسبل
بصيتى ، سارت الركبا ن ، من وعر إلى سهل
هنيئى اليوم بالأمـــوا ل ، قد أصبحت درهم لى ..!

ثم تخيل ، بعد هذا الثراء والعطاء ، أنه قد ولى أمر البلاد والممالك ، من خراسان إلى عمان ، ومن السودان إلى عبادان ، ومن جزيرة العرب إلى غوطة دمشق ، وحلب . فقام يهب ، لا المال والطعام ، ولا الفرو ، والجوخة والنعل . بل يهب الملك والحكم والسلطنة . ويقسم البلاد بين خلانه :

ثم رتّبت دفتراً للعطـــايا وقسَمت البلاد ، بين الأخلا
قلت ، ذاك الصديق أعطيه صنعا فى بنى حمير ، الكرام ، الأجلا
وعلى فارس صديق ، وأرض الرو م ثانٍ ، والهنـــد أو ليه خلا
حاصـــل الأمر أن كل محب لى ، على قدر حظه ، يتولى
وأنا ، فى السحاب ، بيتى ، وتختى كل يوم ، إلى السما ، يتعـــلى

ثم ينزل ، ملك الملوك ، من بيته فى السحاب ، يسعى إلى شىء من مال ينجز به عمله فيقول : —

واقترضنا ، فى الحال ، الفين دينا را نقضى بها ، هنالك ، شغلا
واشترينا خمسين عبدا خصيًّا منهم نصف ذاك ، إلا أقلا
واســـتعرنا لهم ثلاثين قاوو قاً ، على رأسهم ، وللرجل نعلا

ثم ناديتهم وقلت ، هلمـــوا فادخلوا هذه الطوالة ، قبلا
كل شخص منكم حمارا ، يدقّ ثم شيخ العبيـــد يركب بغلا
وخذوا ذا السلاح ، سيفا ورمحا ودروعاً تسمو ، وقوسا ، ونبلا
واعرضـــوا نفسكم علىّ فإنى أشتهى العبد فى السلاح المحلى
واقعدوا ، عنـد بابنا ، ثم قولوا يوم تأتى الحمول ، أهلا وسهلا
ثم أنى فكرت ، إن أصبح الخير ر علينا ، ماذا نقدم فعلا . . ؟
قلت : حط القماش والبن فى المج لس ، واجعل باقى التفاريق سفلا

ثم طفق يختار للتفاريق ، أى الهدايا ، أماكنها ، ويضع أحمال المسك فى خزائنها . حتى هجس فى نفسه هاجس الشك . هل تصل هذه الحمول فى غبش الليل ، أم فى طلوع الشمس ، أم لا تصل . . ؟

يا ترى يغبشون أم تطلع الشمـ ـس عليهم ، أم لا يجيئون أصلا ؟ . .

وتنتهى به هذه الحيرة إلى أن يطلب إلى ثقاته أن يضربوا له « مندلا » فى رمل العراق . عساه أن يهتدى من حيرته المقلقة : —

إضربوا مندلا ، لنا يا ثقاتى ربما يحصـل المنى ، ولعـلا
دخنوا دخنة التهاطيل ، قولوا ياطهاطيل ، طهطهيلات ، طهلا
ألوحا ، ألوحا ، ططاطيل ، طيطا طوطبا ، طوطبا ، طلاطل ، طلا
هات لى يا غلام ، زايرجة الرمـ ـل ، عسانى ، منه ، أخرّج شكلا
إن ترى ، فى الطريق ، عير المطايا تتهـادى ، فخبذا الرمل رملا

ثم ينتهى الأمر إلى أن هذه الأموال ، التى يهب منها لمن شاء ، ما يشاء ، وهذه الممالك الواسعه التى يولى عليها من يشاء . لم تكن سوى حلم حالم ، ووهم واهم . فينهى أحلامه الرضية ، بهذه القصيدة :

قل للخليل الذى أنهى لحضرته خلاصة الود ، من سرى ومن علنى
ومن مدى الدهر أدعو فى سلامته من الردى ، وهى من قصدى ومن شجنى
يا ذا الذى وعدَ المعروف ، ثم مضى لذاك عمر الأمانى ، والزمان ، فنى

ومن على مذهب الحسبان ملكنا … كنوز قارون ، من مصر إلى عدن
إن كان عندك ، محض الوعد تحسبه … أصلا من الجود ، أو فرعا من المن
فعد بحنطة بولاق ، وقل : — معها … مع ساحل البن ، غابات من التين
وافرض بأنك قد قلدتنى عملا … بالهند ، أجبى صنوف الخز والقطن
وولنى ساحل البحرين أجلبه … بسوق سمدك « بازارا » بلا ثمن
وجد بإيوان كسرى ، والخورنق ، والقصر المشيد ، وملك الشام واليمن
واعقد لى التاج رغما منك ، واجعلنى … على طوائف ذى القرنين ، فى المدن
وقل : وهبتك ما فى الأرض من نعم … باللحم ، والجلد ، والأصواف ، واللبن
ولا تكن خشية الإنفاق ، مقتصدا … ما دام كنزك من وعد ، فأنت غنى

ثم يقول ، فى هذه القصيدة ، مخاطبا صديقه الذى أسرف فى وعده بالبذل ، حتى أخذ يدعو جيرانه ، وإخوانه ليشاركوه فى هذا الخير العميم ، الجزيل ، الذى سيأتيه . كما رأينا فى شعر هذه المقامة : —

لله وعدك ، مذ عامين ، أنشدنى : — … أنا المعيدى ، فاسمع بى ولا ترنى
خذ من علومى ، ولا تركن إلى عملى … ولا يغرنك ، منى ، خضرة الدمن
فقلت أجــرى ، عند الله ، أطلبه … حولين ، ياوعد ، تسقينى وتطعمنى …؟
من العجائب ، أبديت الشجاعة فى … وعدى ، وعدت أكلت الخبز بالجبن
مبالغات من الأقـــوال تسمعها … لو كن فى البحر ريحا طرن بالسفن
ياذا الذى جاد ، فى الأحلام ، لى كرما … يهنيك إنى قد استغنيت ، من أذنى .. !
فلا تكن تقطـع التشريف عنى فى … كتاب ودك لى ، فى لفظك الحسن
حتى أفوز بملك الأرض ، منك ، ولا … أرضى بأنى ، فى غمدان ، ذى يزن
وخذ ثوابك ، وعدا ، مثل وعدك لى … هذا بذاك . ولا عتب على الزمن

وأعتقد أن هذا الشعر ، بما فيه من فكاهة ، وتهكم ، وتخيل ، وسهولة لفظ . وبعد التجاوز عن بعض الهنات التى شابته . يمكن أن يعد من الشعر الحسن .

وقد رأينا فى هذا الشعر ، أسماء بعض الأزياء ، والثياب ، التى كان لبسها معروفا

obeikandi.com

فى هذا العصر ، كالقاووق ، والفرو ، والجوخ . وبعض ما كان يطعمه الناس فى مآكلهم . وأسماء أنواع من العملة المتداولة إذ ذاك . مثل الزنجرلى ، والقندقلى . وقد نجد تفسيرا لها فى مكان آخر .

كما نجد أيضا كلمة « بازار » الفرنسية ، بمعناها الصحيح ، وهو السوق . ولم تكن الحملة الفرنسية قد دخلت مصر ولا الشام ، طبعا ، حتى تنتقل من جنودها إلى ألسنة الناس . وربما عرفها السيد جعفر ، من ميناء ينبع . حيث تسير اللغات وتنتقل . حيثما تسير السفن والتاجر .

ولهذا الشاعر الحجازى الشريف ، الظريف ، شعر من الأراجيز ، ضمنه بعض النصائح الطبية . وكيف تصنع بعض الأقراص ، والعقاقير ، والمساحيق .

وله قصيدة لطيفة ، مرحة ، يشكو فيها بعض إخوانه ، لأنهم تواعدوا على مجلس أنيس بهيج ، وتركوه فهو يصف كيف كان يسألهم ، واحدا ، بعد واحد ، عن وجهتهم ، حين لقيهم يوم هـــذا المجلس ، وكيف كـذبوا عليه ، وانتحلوا المعاذير ، واختلقوا أسباب الافتراق . حتى لا يصحب واحدا منهم . وكيف سار كل منهم فى طريق . وسلك ، إلى هذا المجلس الأنيس البهيج درباً ضيقا ، أو زقاقاً ، وهو يخفى نفسه ، حتى لا يعرفه . ثم يقول لإخوانه هؤلاء : ماذا تظنون بى .. ؟ أترونى عفيفاً .. ؟ ثم ينتهى إلى أنهم قوم لا وفاء لهم ، ولا حياء عندهم .

وهذه هى القصيدة : —

قل لأشياعى « الذى » صحبونى ثم راحوا ، من بعـــد معتزليَّة
ولأنصارى « الذى » خذلونى واستعاضوا ، سواى ، أنصارية
لا تظنوا فى عفتى . هى ما هى أنا قلدت مذهب الباحيـة
أى ذنب جنيت ؟ .. حتى استرقتم نفسكم ، للمقيل ، وقت العشية
واحدٌ راح من زقاق القشاشى يتمشى ، فى هيئـة مخفية
ورجال ، من البرابيخ جاؤوا ، ورجال من تحت جـدر التـكية
واحـــد حامل كتابا ، يورّى أنه ســـائر إلى الـكتبية

وأخ قال : قد شربت دواء ... وأريد الإسهال ، فى العنبرية
وصديق سألته : أين تبغى . ؟ ... فلوى رأسه ، وقال : قضية
قد نذرت الصيام شهرا ، ولاء ... وشرطت الإفطار بالعدسية
لاتحدّثْ نفسى بذكر الكوازى ... واللوازى ، والوزّة المحشية
أنا لا أشتهى الكباب ، ولاالرز ... ولا زرباجة ، ولا اللبنية
قد زهدنا فى كل ما تشتهيه النف ... س ، حتى الدجاجة المقلية
عفت كل الطعام . قلت : فما المو ... جب . . ؟ قال : اللحوق بالصوفية
وأتى آخر ، فقلت سلام ... فسعى مسرعاً ، ورد التحية
ووراه شخص يجر خروفاً ... حاملا ، تحت كمه ، مطبقية
قلت : ما الحال . .؟ قال قد شرد العبـ ... ـد ، بشالى ، والفرو ، والفرجية
قلت : قد مرّ عبدكم بطعام ... وشراب ، من قبلكم ، من هنيّة
قال : عبدى ياقوت . . ؟ قلت نعم ، قا ... ل : لقد بعته ، نهار الضحية
إسم هذا الماس ، قبحه الله ... ه ..... أمّه الزنجية
ثم ولى عجلان ، قلت انتظرنى ... أطلب العبد معك ، للتربية
أنا أولى بالجرى منك ، لأنى ... ما طعمت الغدا ، وبطنى خلية
قال : أقسم بالله ربك ، أقسم ... بالنبى ، باليهود ، بالعيسوية . . . !
ما يفوت العُبيد ، وهو قريب ... حول نخل الإمام والكركية
ثم أنى سألت عن واقع الحا ... ل ، وتلك القضية المخفية
فإذا أنتمُ كما قد ذكرنا ... لا وفا ، لا حيا ، ولا عصبية . . . !

وهذه القصيدة ، كما ترى ، هى قصة من الشعر طريفة عذبة ، فيها خصائص القصة من وقائع ، وحوار ، وحسن حيلة .

وقد ترجم الجبرتى لسيد آخر شريف . قدم مصر ، ونال فيها مكاناً ممتازاً . ولكنه لم يكن ، كالسيد جعفر الحجازى ، شاعراً ظريفاً . بل كان ، مع قوله الشعر ، صوفياً . وهو السيد عبد الرحمن العيدروسى الحسينى التريمى .

نشأ عبد الرحمن فى تريم ، باليمن ، وطوّف بالبلاد ، وأقام فى الهند عشر سنين .

وقدم مصر ثم تركها مراراً . وزار جزيرة قبرص ، وإسلامبول ، والشام . ثم استقر فى مصر وطاف فى بلادها كلها . وحج سبع عشرة مرة . وكان أمراء مصر — على ما بينهم من فرقة واختلاف — يخضعون له . ولا يردون له شفاعة .

وشعر السيد العيدروسى لا يخرج عن مستوى الشعراء الذين روينا بعضاً من شعرهم ، فى هذا الفصل . وقد جمعه فى ديوان سماه «ترويح البال وتهييج البلبال»[1] وذكر الجبرتى له مؤلفات أخرى كثيرة معظمها فى التصوف .

ولد فى سنة ١١٣٥ واستقر فى مصر سنة ١١٨٥ ومات بها فى المحـــرم سنة ١١٩٢ .

اسماعيل الظهورى

ومن شعراء هذا العصر ، شاعر اشتغل بالموشحات الأندلسية ، فجاء منها بشىء ما . وهو الشاعر الناثر ، إسماعيل أفندى ابن خليل الظهورى . كان رجلا قانعا يتكسب بالكتابة ، جيد الخط ، حسن الذوق فيه . وكان له متجر يبيع فيه الورق بوكالة البقل ، بالقرب من خان الخليلى . وهو إلى ذلك له معرفة جيدة بعلم الألحان ، والموسيقى ، وضرب العود . ومات سنة ١٢١١ .

ومن شـعر الظهورى ، موشحة نظمها على وزن موشحة ابن الخطيب الأندلسى أولها :—

ليت شعرى ، يا أخلاء الهوى ... هل أرى بدرى ، بحانى ، مؤنسى . ؟
أم أقاسى عن زمان قد قســـا ... ورمى أحشاى ، سهما ، عن قسى ؟
يا سقى الله زمانا قـد مضى ... فى مغانى مصر ، فى عيش خصيب
حيث بدرى قد قضى لى ما قضى ... بالتدانى ، إذ غفت عـين الرقيب

ومنها : —

يا رياضا حسنهـــا زاه يشيق ... جاد ، فى مثواك ، منهلّ السحاب
كم مضى لى ، فيك ، من معنى أنيق ... حـين كان اللهـو مزهىّ الجنـاب
هل ترى عينى محياك الرشيق . . ؟ ... لابساً برد التهانى ، والشبـــاب

---

(١) طبع هذا الديوان فى المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٢٨٣ هـ .

بوأرى بدرى يناجيني على ذلك البسط الشهي السندسي
وأحلى صبر دهرى باللي من معان زاهيات الملبس

وقد ترك الظهوري القاهرة فترة ، إلى بلدة أطواب ، في الصعيد . ولعله ألف موشحته تلك في هذه القرية . فحنينه فيها إلى مصر ، ليس خيال شاعر .

ولعل أجود ما أورده الجبرتي من شعر الظهوري ، هذا الذي قاله في الحنين إلى مصر ، وخاصة هذه القصيدة ، التي مطلعها : —

سلام على مصر ، سلام شجٍ حنا تبلغها أيدى النسيم ، لها ، عنا

والتي يقول فيها ، بعد أن ذكر نيل مصر ، وظلالها ، وخلجانها ، والمقياس :—

ميادين لذّات ، وأقصى مآرب ، وغايات آمال ، لمن هام ، أو أنّا
فكم نلت فيها من سرور ، وبغية إذ العيش طلق ، والهوى ضاحك سنا
وليلاتنا فيها ، وطيب حديثنا وجيب الدجى ينشق ، عن بدرها ، دجنا
تنكرت ، ياأيام ، من ذا الذي وشى إليك بسوء . . ؟ ما الذي قد جرى منا
لئن كان ذنبي ، عندك ، الفهم والحجا فجهلي أحرى . فارجعى ، لست أستغنى
إرادة حظى أتعبتني ، ومن يكن يحاول حظا ، حال من دونه الأدنى
قلتني مصر ، وهي أهلي ، وشيعتي وداري ، وشوقي ، والمآلف ، والمغنى
وأنزلني طول النوى ، دار غربة بغربيّ مصر ، أشتكي الهم والحزنا
أقمت بأطواب ثلاثين ليلة أقاسي بها الأوصاب ، واخترتها سجنا
أردد عيني ، في خلال ديارها فأنظر أهليها ، وقد ملؤا جبنا . . . !

وللظهوري هذه القطعة من الشعر ، وسواء أكان ما فيها حقا ، أم هو من غي الشعر وشيطانه ، فإنها تدلنا على أن الشعراء ، وأهل الفن ، كان لهم ، من حرية القول حظ غير قليل : —

هل العيش إلا في اكتساب مآثم . . ؟ أو العمر ، إلا في اقتناء محارم . . ؟
أو النعم ، إلا في ارتكاب كبيرة . . . ؟ أو السكر ، إلا في ارتشاف مباسم . ؟
سقى الله أيام البطالة أدمعاً من العين ، تجرى كالغيوث السواجم

obeikandi.com

زمان به كان السرور بخنصرى ... ختاما ، وكان الظبي فيه منادمى
إذ العيش طلق ، والرياض بواسم ... عن النّوْر ، لكن من شفاه الكمائم
وسيرى إلى تلك الدساكر ، سحرة ... وغنمى بها ، من طيبات مواسم
وجرى ذيول التيه ، فى عرصاتها ... جهارا ، وضمى للقدود النواعم
... ...
لقد طالما نازعت فيها زجاجة ... تضمنت الأفراح ، من عهد آدم
معتّقة ، صاغ المزاج لرأسها ... أكاليل ، من در ، كدور دراهم
إذا ما جلاها مخطف الخصر ، فى الدجا ... وغنى عليها ، مثل شدو الحمائم
:— أبحت طريفى ، فى هواه ، وتالدى ... وصيرته مولى علىّ ، وحاكمى

وله هذان البيتان : —

خبرانى عن قهقهات القنانى ... أنا ، منها ، فى غاية الأبهام
أترى ضحكها ، لبسط الندامى . ؟ ... أم بكاء على فراق المدام . ؟

وللظهورى بعض من الشعر يدل على أنه كان على شىء من الثقافة العلمية ، استخدم فيه علم الفلك ، على وجه لا بأس به .

عامر الأنبوطى

وهناك شاعر ماجن ظريف ، اسمه الشيخ عامر الأنبوطى . كان هجاءاً ، كما يقول الجبرتى « لهيب شراره محرق . » وكان يجىء من بلده إلى القاهرة فيزور العلماء والأعيان . ويتلقى ما يتداولونه من شعر فيصنع ، على وزنه وقافيته ، شعراً آخر هازلا ، يتناول فيه الطعام ، وأصناف المأكولات . وكان الشعراء يكرهون ذلك منه ، ويتحامونه ، حتى لا يحيل شعرهم إلى سخرية . وكان الشيخ عبد الله الشبراوى يكسوه ، ويكرمه ، ثم يقول له : بالله يا شيخ عامر لا « تزفر » قصيدتى ، وهذه جائزتك ؛ ثم يعطيه . وكان الشيخ الحفنى يكرمه أيضا ، وينفق عليه . ويستطيب الاستماع له . وكان الشاعر الأنبوطى شيخا كبيرا ، صالحا ، يكحل عينيه ، ويعنى بهيئته ، وهندامه .

صنع الشيخ الأنبوطى ألفية فى الطعام ، على وزن ألفية ابن مالك فى النحو ، أولها :

يقول عامر ، هو الأنبوطى أحمد ربى ، لست بالقنوط
وأستعين الله ، فى ألفية مقاصد الأكل بها محوية
فيها صنوف الأكل ، والمطاعم لذّت لكل جائع ، وهائم

وفيها يقول : —

طعامنا الضانى لذيذ للنهم لحماً ، وسمناً ، ثم خبزاً ، فالتقم
فإنها نفيسة ، والأكل عم مطاعماً ، إلى سناها القلب أم
والأصل فى الأخباز أن تقمرا وجوزوا التقديد ، إذ لا ضرراً

وألف ، فى الطعام أيضاً ، قصيدة على وزن لامية ابن الوردى ، وهى :

اجتنب مطعوم عدس ، وبصل فى عشاء ، فهو للعقل خبل
وعن البيصار ، لا تعن به تمس فى صحة جسم من علل
واحتفل بالضأن ، إن كنت فتى زكّ العقل ، ودع عنك الكسل
من كباب وضلوع قد زكت أكلها ينفى عن القلب الوجل

وأخرى على وزن لامية العجم لصلاح الدين الصفدى :

آناجر الضأن ، ترياق من العلل وأصحن الرز ، فيها منتهى أملى
أكلى غداء ، وأكلى فى العشاء ، على حد سوىّ ، إذا اللحم السمين قلى
فيم الإقامة بالأرياف ، لا شبعى فيها ، ولا نزهتى فيها ، ولا جذلى
نأى عن الأهل : خلى الجوف ، منقبض كمعدم مات من جوع ، ومن قشل
فلا خليل ، بدفع الجوع يرحمنى ولا كريم ، بلحم الضأن يسمح لى
طال التلهف المطعوم ، واشتعلت حشاشتى بحمام البيت ، حين قلى
أريد أكلا نفيساً ، أستعين به على العبادات ، والمطلوب من عملى
والدهر يفجع قلبى من مطاعمه بالعدس والكشك والبيصار والبصل
ناديت ، هيا ولا تبطىء بغرفك لى فإنه خلق الإنسان من عجل

وللأنبوطى ، فى الأطعمة والمآكل أزجال شعبية ، ألفها باللغة العامية منها :

أكلك من الضان رطلين يزيد قلبك نفاسة
وابعد عن الكشك يازين دا الأكل منه تعاسة

ومنها :

أكل المطبّق ، مع الفجر بالشهد ، والسمن سايح
اللى يجيبه له أجر فى جنة الخلد رايح

ومنها :

يا طابخ الضانى اشتد واغرف أوانى وسيعة
عامر أتالك ، وله يد فى الأكل دايماً سريعة

و : خشاف، ومشمش، وعناب الشرب منهم دوايه
من بعد ما كل كباب يارب حقق رجايه

و : والعدس، والكشك ، والفول الأكل منهم شمـــاته
يصبّحوا الشاب مخبول قطعوا الجميع ، التـــلاته

مصطفى اللقيمى الدمياطى

وكان مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى ، شاعرا من الذين احتفل الجبرتى بهم ، وأطنب فى ذكرهم ومدحهم . كان أسعد أفندى هذا ، واحدا من إخوة أربعة ، كلهم شعراء . وقد أورد الجبرتى له مقامة طويلة ، سماها « المدامة الأرجوانية ، فى المقامة الرضوانية » ألفها فى مدح الأمير رضوان الجلفى ، وضمنها كثيرا من شعره . ووصف فيها قصور هذا الأمير ، وصفا شائقـاً ، بارعا . ربما نعود إليه عند الكلام عن الحياة الاجتماعية ، وما كان فى بيوت الأمراء من ثروة ومن نعيم .

وشعر السيد مصطفى اللقيمى قريب من ذلك الشعر الذى أوردنا منه قدرا كافيا لشعراء آخرين ، فى هذا الفصل . ويبدو أن هذا الشاعر كان شديد اللصوق بالأمير رضوان ، فإن شعره كله ، يكاد أن يكون قاصرا على ذكره ومدحه ، وتهنئته . ووصف ما شيد ، على بركة الأزبكية ، من قصور ، وغرس من بساتين .

وللشاعر الدمياطى مزدوجة ، فى مدح هذا الأمير أيضا ، لعلها خير ما أورده الجبرتى من شعره . ولعلها ، أيضا ، أجود قليلا من تلك المزدوجات ، والموشحات ، التى أوردها من شعر إسماعيل افندى الظهورى ، ونقلنا بعضها ، منذ قليل ، وقد استهل هذه المزدوجة بقوله : —

يا سعد عرّج بالحمى ، والرند ... وطف بأكناف الربى ، من نجد
فهم منى عينى ، وجلّ قصدى ... وحبهم أثار فار وجدى
واشرح لهم حالى ، وما ألاقى ... من لاعج الغرام ، والأشواق
وما جرى من دمعى المهراق ... واذكر عليلا بات فى احتراق
يشكو تباريح الجوى والسهد

حليف شوق ، جسمه نحيل ... أليف توق ، شفه الغليل
سلوانه ، والصبر ، مستحيل ... يقول : هل لى فى اللقا سبيل
لأستريح من عنا ً ووجد

ومنها : —

لله ما أحلى ظبا ذاك الحمى ... وما ألذ الوصل ، من تلك الدمى
هيّجت شوقى ، والنسيم ، عندما ... ذكرت ، فاسعف بالحديث ، مغرما
بشوقه تذكار ذاك العهد

وهات لى حديث لازبكية ... وما حوت أدواحها الزكية
حسنا ً زهت أرجاؤها السنية ... إذ لاح فى غرتها البهية
قصور رضوان العلا والمجد

يا حبذا معاهد حسان ... يغنيك ، عن وصفى لها ، العيان
قد حل فيها الحور ، والولدان ... حصباءها الياقوت والمرجان
فانظر تراها ، جنة كالخلد

فكم بها من دوحة أنيقة ... وروضة أغصانها وريقة
وربوة ، أنهارها غديقة ... ومرجة ، أزهارها عبيقة
من نرجس ، وسوسن ، وورد

ولا شك أن القارىء يدرك ما فى هذا الشعر الذى أوردناه كله من خطأ فى اللغة . ولكن الخطأ فى اللغة لم يكن شيئا ً غريبا ً على شعراء هذا العصر وبلغائه . وقد رأينا كيف أخطأ الشيخ عبد الله الشرقاوى ، شيخ الأزهر ، ورئيس الديوان . وكتاب الجبرتى

نفسه ، وهو واحد من كبار الكتاب فى ذلك العصر ، فيه من الخطأ ، والخطأ الفاحش ، شىء كثير .

وقد ترجم الجبرتى لرجل ، ليس من الشعراء ، ولا من الأدباء . ولكنه كان ذا لون من المعرفة غريب ، وكان يعلن هذا اللون من المعرفة ويفاخر الناس فيه ، حتى اتهموه فى عقيدته ، وفى دينه . ولكنهم ، مع ذلك ، لم ينالوه بسوء ، لأنه كان صاحب سطوة ونفوذ ، وكان قريباً من محمد على ، وصاحب حظوة عنده .

يصف الجبرتى هذا الرجل بأنه « النجيب الأريب ، والنادرة العجيب ، أعجوبة الزمان ، وبهجة الخلان ، حسن أفندى ، المعروف بالدرويش الموصلى ، الذكى الألمعى ، والسميذع اللوذعى . كان إنساناً عجيباً فى نفسه ، مميزاً شهيراً فى مصره »

وقد طوف هذا الدرويش بالبلاد ، وعرف كثيراً من اللغات . كما درس فنوناً كثيرة من الرياضيات ، والفلسفة . واشتغل بذلك حتى « أهمل الواجبات الشرعية ، والفرائض القطعية . وربما قلد كلام الملحدين ، وشكوك المارقين » وكان لا يخشى أن يظهر ذلك على الناس . ولا أن يتحدث به إليهم . حتى طعنوا فيه ، وأخرجوه من زمرة المسلمين .

وكان الدرويش ، لذكائه ، ولباقته ، ومعرفته لكثير من اللغات ، وكثرة معارفه ، مقرباً إلى أصحاب السلطان . فلما أراد محمد على أن ينشىء مدرسة للهندسة والرياضيات ، اختاره معلماً فيها ، ورئيساً لها . وكان يعلم طلابها على آلات فى الهندسة ، والمساحة ، والفلك ، مجلوبة من انجلترا . ونجح فى عمله هذا نجاحاً كبيراً .

ومات هذا الرجل فى يوم الخميس السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٣١ فتحرك الناس ، بعد موته ، للطعن فيه ، وتجريحه ، حتى قالوا : مات رئيس الملحدين ، وانهدم ركن الزندقة . وأبلغوا نائب محمد على أن فى خزانته كتب الملحدين والكتاب الذى ألفه ابن الروندى فى معارضة القرآن . وفتحت خزائن الدرويش الموصلى ، فلم يكن فيها شىء من ذلك .

ولم يذكر لنا الجبرتى منشأ هذا الرجل ، ولا وطنه . ولعله لم يكن يعرف ذلك لأن الدرويش نفسه لم يكن يريد أن يعرف الناس وطنه ، ولا نشأته . فإن الجبرتى يذكر عنه ، أنه كان ينتسب إلى كل قبيل ، فمرة ينتسب إلى فارس ، وتارة إلى بنى مكانس » .

ويبدو أنه كانت هناك صلات من المودة ، بين الدرويش الوصلى وبين الجبرتى ، فإن حديثه عنه ليس خالياً من العطف والتقدير ، وقد دفع عنه ، إلى حدما ، وبكثير من اللباقة ، تهمة الزندقة .

ونجد من رجال هذا العصر شاعراً من شعراء العبث والدعابة والهجاء ، اسمه الشيخ محمد شبانة . لم يذكر الجبرتى سنة مولده . وذكر أنه مات فى سنة ١٢٠٠ . ويقول إن شبانة هذا كان من نوادر وقته . اشتغل بالعلم فأجاد . واشتغل بالشعر فأجاد . وداعب أهل عصره من الشعراء وغيرهم فاشتهر بينهم وأذعنوا لفضله . ولكن سليقته فى الهجاء والدعابة كانت أجود .

وكانت بين الشيخ شبانة وبين الشيخ قاسم الأديب مساجلات شعرية عابثة . منها هذه القصيدة التى أرسلها شبانة له على وزن قصيدة :

سبحان من قسم الحظو ظ ، فلا عتاب ولا ملامه

منها : —

سبحان من قسم النحو س لقاسم ، وأذلّ هامه
وكساه ثوب جناية يخزى بها يوم القيامه
هو ردء من هجم البيو ت ، وردء من خطف العمامه
يحتال فى نشل الحري ر ، ولو تحصن فى دعامه
ويسل لكل العين مَن من خوفه ينفى منامه
لو حل فى حرم الوزي ر ، مصاحبا ، ورأى غلامه
— : لمضى به لأخى الهوى فى غفلة يقضى مرامه
بالشال عمم رأسه ولحيّة تأتى أمامه
خوف الجوالى أن ترا ه وفى تستره السلامة

والجوالى هم الذين يأخذون الجزية من النصارى ، يريد أنه يلبس العمامة على رأسه ، ويطلق لحيته أمامه : يتستر بهما . ولولا ذلك لأخذت منه الجزية . وقد أجابه الشيخ قاسم بقصيدة عابثة أيضا من الوزن والقافية .

السيد مرتضى الزبيدى

ومن العلماء الذين أرخ لهم الجبرتى . المحدث ، اللغوى ، السيد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس ، من شرح جواهر القاموس[1]

وصفه الجبرتى بأنه « علم الأعلام ، والساحر اللاعب بالأفهام ، الذى جاب فى اللغة والحديث كل فج ، وخاض ، من العلم كل لج . المذلل له سبيل الكلام . الشاهد له الورق والأقلام . ذو المعرفة والمعروف ، وهو العلم الموصوف . العمدة الفهامة ، والرحالة النسابة ، الفقيه ، المحدث ، اللغوى ، النحوى ، الأصولى ، الناظم ، الناثر ، الشيخ أبو الفيض السيد محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى الحنفى »

هكذا حدث السيد مرتضى ، عن نسبه وعن نفسه . وقال إنه ولد فى سنة ١١٤٥ . ولكنه لم يذكر فى أى البلاد ولد ، ولا فى أيها نشأ وتعلم . فإن الجبرتى يقول إنه نشأ « فى بلاده » وارتحل فى طلب العلم ، وحج مراراً ، واجتمع بطائفة من كبار العلماء ، فى مكة ، والطائف ، واليمن . ثم قدم مصر فى التاسع من صفر سنة ١١٦٧ ، أى فى سن الثانية والعشرين ، فحضر على كبار الشيوخ ، وتلقى عليهم ، فأعجبوا به ، وشهدوا له بالعلم ، وجودة الحفظ . وأعانه على الطلب والاشتغال بالعلوم ، أمير من أمراء ذلك العصر ، هو إسماعيل كتخدا عزبان . حتى أصبح ميسور الحال ، يركب الخيول ، ويلبس فاخر الثياب ، واشتهر أمره بين الناس . ثم سافر إلى الصعيد فأقام فيه زمناً ، مكرماً من كبار أهله . وكذلك تنقل فى بلاد كثيرة من دلتا مصر . وكتب عن رحلاته هذه رسائل . ثم عاد إلى القاهرة فتزوج بها وبنى بزوجه فى عطفة الغسال . وأبقى سكنه الذى كان يقيم فيه ، فى وكالة الصاغة . ثم انتقل ، فى سنة ١١٨٩ ، إلى بيت

---

(١) طبع تاج العروس بالمطبعة الوهبية بالقاهرة فى سنة ١٢٨٧

بسويقة اللالا ، بالقرب من مسجد الحنفى ، وكانت هذه المنطقة مساكن الأعيان وكبار الناس ، فى ذلك الوقت ، فأحبوه ، وقربوه . بل توددوا إليه . وزادوا فى إكرامه . وهو يظهر لهم التعفف والغنى ، ويعظهم ويفيدهم . ويكتب لهم التمائم والرقى ، ويجيزهم بقراءة الأوراد والأحزاب ، فأقبل عليه الناس إقبالا شديداً وتعلقت قلوبهم به .

ثم شرع ، بعد ذلك ، فى إملاء الحديث على طريقة السلف . يذكر الأسانيد والرواة ، والمخرجين ، من حفظه ، على طرق مختلفة ، ويكتب هذه الأسانيد ويجيز سامعيه بها . وقصده علماء الأزهر يستمعون إليه ، فى جامع شيخون ، بالصليبة ، فشرع يقرأ لهم صحيح البخارى . وشاركهم فى الاستماع إليه ، كثير من الناس . فلما تناقل الناس أن كبار العلماء يسعون إليه ، زاد قدره عندهم . ولكن العلماء انقطعوا عن سماعه فاستغنى عنهم بغيرهم ، وافتتح درساً آخر ، فى مسجد الحنفى فارتفع قدره بين الناس ، وتكاثر عليه الراغبون فى درسه ، والمعجبون بعلمه ، وطريقته فى التدريس ، التى لم تكن مألوفة عند علماء مصر ، كما كان زيه على غير زيهم ، ودعاه الأمراء والأعيان إلى بيوتهم ، يقيمون له الولائم الفاخرة . ثم يجلس فى بيوتهم ، مفتتحاً درسه ، يجلس إليه الخاصة من تلاميذه ، وصاحب البيت ، وأسرته ، وأصدقاءه ، وأولاده ، وبناته ، ونسائه من خلف الستور ، وبين أيديهم مجامر البخور ، بالعنبر والعود ، يملأ عبيره الزكى مجلس الشيخ ، ما دام يلقى درسه . حتى إذا فرغ منه ، كتب الكاتب أسماء الحاضرين ، حتى النساء ، والبنات والصبيان وكتب اليوم والساعة التى كان فيها المجلس . ثم أمضى عليها الشيخ بتوقيعه ، وهذه كانت طريقة الأقدمين من العلماء .

وقد حضر الجبرتى كثيراً من هذه المجالس ، واستمع إلى كثير من هذه الدروس ، ودعا السيد المرتضى إلى إلقاء بعضها فى بيته بالصنادقية وبولاق ، وغيرها ، كما سعى كبار الأمراء ، مثل مصطفى بك الأسكندرانى ، وأيوب بك الدفتردار ، إلى بيت المرتضى الزبيدى ، وجلسوا إليه مستمعين ، وكلما زاد إعجابهم به ، زادت صلاتهم له ، وتضاعف برهم به ، حتى امتلأت بيوته بالجوارى ، والخيرات .

ولما تولى محمد باشا عزت أمر مصر ، زاد فى رفعة شأنه ، وخلع عليه الخلع الثمينة ، ورتب له ، من مطابخه ، ما يكفيه من اللحم ، والأرز ، والسمن ، والخبز والحطب ، والغلال . وكتب إلى الدولة ، فى إسلامبول ، بشأنه ، فأمرت له بمرتب يومى ، قدره مائة وخمسون نصف فضة . وهو مرتب جزيل فى ذلك العصر ، وبهذا التكريم من عزت باشا ، ومن رجال الدولة ، بلغ المرتضى الزبيدى أوج مجده فترادفت عليه الرسائل ، من جميع الأقطار ، من الحجاز ، واليمن ، والهند ، والعراق والشام ، والمغرب ، والسودان ، وأرسل إليه ملوكها وأمراءها الهدايا العظيمة ، جاءت له من فزان بالمغرب ، أغنام نادرة ، فأهداها إلى السلطان ، وأهديت إليه الجوارى المليحة ، والعبيد ، وطيور الببغاء ، وطرائف الصناعات ، من الهند ، واليمن ، فكان يرسل مما يرد إليه من هذه الهدايا النادرة ، إلى أمراء البلاد ، وملوكها .

ولما قدم مصر حسن باشا الوالى ، لم يذهب السيد لزيارته ، بل زاره الباشا وخلع عليه خلعة سنيه ، وأهداه فرساً مسرجاً ، قيمته ألف دينار ، وكانت شفاعة الشيخ عنده لا ترد ، إذا جاءته منه ورقة ، قبلها ، قبل أن يقرأها ، ثم وضعها فوق رأسه ، ونفذ ما فيها ، فور قراءتها .

وكانت للسيد الزبيدى عناية كبيرة باقتناء الكتب النوادر ، كان صديقه الشيخ الزاهد أحمد بن سعيد السوسى التونسى يرسل إليه فى كل سنة ، قائمة بما يقع عليه منها ، فيطلب إليه الزبيدى أن يشتريه له .

وبلغ من سمو المكانة ، التى وصل إليها المرتضى الزبيدى ، عند أهل المغرب خاصة ، أن بعضهم كان يرى أن حجه بيت الله الحرام ، لا يتم إلا إذا زار هذا الشيخ ، ووصله بهدية . فمن حج البيت ، ولم يزر المرتضى الزبيدى ، ويقدم إليه شيئاً ، كان حجه ناقصاً .

ومن فاز من الشيخ بقطعة من الورق ، بقدر أنملة الأصبع ، قبّل الأرض بين يديه . وجعل هذه الورقة تميمة .

وأرسلت الدولة فى طلبه ، ليزور دار الخلافة ، فى سنة ١١٩٤ فأجاب ثم امتنع .

وبعد أن بلغ الزبيدى هذا المبلغ ، من المجد ، والشهرة ، والثروة ، أصيب بنكبة فادحة ، بوفاة زوجه ، التى كان يحبها حباً عظيما . فحزن عليها أعظم الحزن ، وبنى لها ، عند مشهد السيدة رقية ، قبراً أقام عليه مقصورة ، وعلق عليه الستور ، والقناديل . ولازم قبرها هذا أياماً كثيرة . والناس تجتمع إليه فيه ، فيطعمهم ، ويسقيهم القهوة ، والشربات . وكثير من القراء والمنشدين ، يتلون القرآن ، ويرتلون الأناشيد ، عند القبر . ثم بنى ، إلى جوار قبرها ، بيتاً أسكن فيه أمها ، وكان يبيت فيه أحياناً . وقصد إليه كثير من الشعراء برثائهم ، فأجازهم عليه . ورثاها هو بكثير من الشعر الحزين الذى يدل على صدق عاطفته نحوها . وعظيم رزئه فيها ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يتزوج أخرى ، غيرها .

تزوج الشيخ ، بعد زوجه هذه ، فبدأ حاله فى التغير .

ترك الدرس والقراءه . واعتكف عن الناس ، ولزم حريمه . وغلق بابه . ولم يعد يقبل ما كان يرسله إليه الأمراء والأعيان من هدية وصلة . ذهب إليه مصطفى بك الأسكندرانى ، صديقه القديم ، ومن أكبر المعجبين به ، ومعه آخرون من الأمراء ، فاحتجب عنهم ، ولم يلقهم . وأهدى إليه أيوب بك الدفتردار ، صديقه القديم ، أيضاً ، خمسين أردباً من القمح ، وأحمالا من الأرز ، والسمن ، والعسل ، والزيت . وخمسمائة ريال . وأقمشة هندية ثمينة ، وجوخاً . فرد ذلك كله ، ولم يقبله .

وكان السلطان محمد ، سلطان المغرب ، يصله فى مواسم كثيرة . فأرسل إليه ، بعد زواجه من هذه المرأة ، إحدى صلاته ، فى سنة ١٢٠١ فلم يقبلها ولم تعد إلى السلطان فلما علم ذلك أرسل إليه معاتباً ، مؤنباً وقال له . ليتك رددت الصلة التى أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين . أوليتك أعطيتها للفقراء والمحتاجين . فيكون لنا ولك أجر ذلك

وفى شهر شعبان ، من سنة ١٢٠٥ أصيب السيد بالطاعون ، وكان وبائياً فى هذه السنة . أصيب يوم الجمعة ، بعد الصلاة ، واعتقل لسانه ليلا ، ثم مات يوم الأحد . فأخفت هذه الزوجة ، وأهلها ، موته حتى نقلوا من بيته كل شىء ثمين

وكل مال ، ومتاع . حتى الكتب . وأظهروا ، بعد ذلك موته ، يوم الإثنين . ثم دفن فى قبره الذى كان أعده إلى جوار زوجه الأولى . ولم يعلم بموته أهل الأزهر ، لانشغال الناس بأمر الطاعون ولم يترك ولداً ولا بنتاً ، ولم يرثه أحد من الشعراء.

وكان السيد المرتضى نحيف البدن ، ذهبى اللون . أنيق الثياب يلبس عمامة أهل مكة ، لها عذبة تنزل على قفاه .

وبعد موته بزمن قليل ، تزوجت امرأته بمملوك من الأجناد، وأظهرت ما تركه السيد . فكان شيئاً كثيراً جداً . كان منه أكوام من المقصبات ، والأقمشة الهندية ، والفراء ، والساعات الثمينة ويسميها الجبرتى « ساعات العب » .

وقد بيعت أوراقه وكتبه، وبعض أمتعته ، بأكثر من مائة ألف نصف فضة. وقد اشترى الجبرتى قسماً كبيراً من هذه الكتب والأوراق ، ووجد فيها كثيراً من شعره . كما وجد فيها أصول كتابه « عجائب الآثار » التى كان أعطاها للسيد .

أما ما خلفه السيد المرتضى ، من الثروة الأدبية والعلمية ، فإن أبرز ما فيه كتابه « تاج العروس » ، وقد أمضى فى تأليفه نيفاً وأربع عشرة سنة ، وأتمه فى أربعة عشر مجلداً ، وأقام ، عند الفراغ منه ، وليمة حافلة ، سنة ١١٨١ ، جمع فيها كبار العلماء وشيوخهم ، وأطلعهم على طريقته فى وضع الكتاب ، فأعجبوا بها . وتبارى الشعراء فى تقريظه ، ومدح صاحبه .

وكان محمد بك أبو الذهب ، قد انتهى ، عند ذلك الوقت ، من بناء مسجده المواجه للجامع الأزهر ، وأنشأ فيه خزانة للكتب . فتحدث إليه بعض العلماء فى شأن تاج العروس فطلبه من السيد الزبيدى وأعطاه ، فى نظيره ، مائة ألف درهم فضة ووضعه فى خزانة الكتب التى أنشأها بالمسجد .

ولعل كتاب المرتضى الزبيدى هذا ، هو خير ما ألف العلماء ، واللغويون فى فى هذا العصر الذى أرخه الجبرتى كله . فهو ، وكتاب الجبرتى نفسه ، هما العمل ، الذى يستحق أن يذكر ، ويشاد به ، من إنتاج هذا العصر اللغوى ، أو الأدبى ، أو العلمى

وللسيد ، غير هذا الكتاب ، رسائل فى علم الأنساب ، والأسانيد ، وتخريج الأحاديث . وشرح لبعض أجزاء من إحياء علوم الدين ، للغزالى . وكتاب أصول الفقه ، سماه «الجواهر المنيفة ، فى أصول أدلة مذهب أبى حنيفة» وهدية الإخوان، فى شجرة الدخان وكتب أخرى فى تفسير بعض السور ، أو الآيات ، وفى شرح بعض الأحاديث ، وفى التصوف ، وفى مصطلح الحديث ، وبعض المقامات وأرجوزة فى الفقه ، ورسالة فى تاريخ بنى أيوب

وكان المرتضى الزبيدى يعرف اللغتين ، التركية ، والفارسية ، وبعضاً من لغة الكرج ، وزبيد ، التى ينسب إليها ، من بلاد اليمن .

وقد ذكر الجبرتى شعراً مما قاله الزبيدى فى رثاء زوجه « زبيدة » التى ماتت قبله فحزن عليها حزناً كثيراً ، وشعره فيها ، كما سترى ، فيه من صدق العاطفة ، ومن حرارة هذا الحزن المضطرم الصادق ، شىء كثير .

فمما قاله ، فى رثائها ، هذه القصيدة : —

خليلىّ ، ما للأنس أضحى مقطعاً ... وما لفؤادى لا يزال مروعا
أمن غير الدهر المشتّ ، وحادثٍ ... ألمّ برحلى .. ؟ أم تذكرت مصرعا .. ؟
وإلا فراق ، من أليفة مهجتى ... زبيدة . ؟ ذات الحسن والفضل أجمعا
مضت ، فمضت عنى بها كل لذة ... تقرّبها عيناى . فانقطعا معا
لقد شربتْ كأساً ، سنشرب كلنا ... كما شربت . لم يجد عن ذاك مدفعا
فمن مبلغن صحبى ، بمكة ، أننى ... بكيت ، فلم أترك لعينىّ مدمعا

ومن شعره فيها أيضاً : —

خليلىّ ، هل ذكرى الأحبة نافع .. ؟ ... فقد خاننى الصبر الجميل العواقب
وهل لى عود ، فى الحمى ، أم تراجع ... لوصل ، بتلك الآنسات الكواعب
لقد رحلت عنى الحبيبة ، غدوة ... وسارت إلى بيت ، بأعلى السباسب
أقول ، وما يدرى أناس غدوا بها ... إلى اللحد ، ماذا أدرجوا فى السباسب
: — تأخرت عنها ، فى المسير ، وليتنى ... تقدمت ، لا ألوى على حزن نادب

وفى رثائها ، أيضاً ، يقول :

زبيدة شـــدت للرحيل مطيها ... غداة الثلاثا ، فى غلائلها الخضر
وطافت بها الأملاك من كل وجهة ... ودقّ لها طبل السماء ، بلا نكر
تميس ، كما ماست عروس بدلها ... وتخطر ، فيها ، فى البرانس ، والأزر
سأبكى عليها ما حييت ، وإن أمت ... ستبكى عظامى ، والأضالع ، فى القبر
ولست بها مستبقياً فيض عبرة ... ولا طالباً ، بالصبر ، عاقبة الصبر

وفى قصيدة أخرى من هذا الشعر الحزين يعدد صفات زوجه تلك . فيذكر من ذلك كرم أخلاقها ، وصلتها لرحمها ، وطاعتها لزوجها ، وعنايتها بطعامه ، ولين كلامها ، حين تكلمه . ثم يقول إنها من عنصر كريم ، « عميدة قوم من كرام أطايب » .

وقد ذكر الجبرتى أن السيد الزبيدى قال ، فى رثاء زوجه ، كثيراً من الشعر . وأنه تركه خوف الإطالة . وليته حفظ لنا كل ما جمع من هذا الشعر الصادق ، الرقيق . الذى ينفرد بهذا الصدق ، وهذه الحرارة . إلى جوار ما حفظ من شعر كاذب ، أو غليظ . لا يصور عاطفة ، ولا يصدر عن وجدان . كما رأينا فى كثير من شعر المديح والرثاء ، والمناسبات . التى عنى الجبرتى بتسجيله والذى نقلنا بعضا منه ، فى كتابنا ، وفى هذا الفصل خاصة .

قاسم بن عطاء الله

وكذلك ترجم الجبرتى لقاسم بن عطاء الله المصرى . وقال إنه كان ، مع ارتجاله الشعر ، مشتهراً بالتوشيح والزجل ، حتى عرف أول أمره بالزجال . ولكنه روى لنا بعضا من شعره ، لا خير فيه ، ولم يحفظ لنا غير شىء يسير من زجله وتواشيحه . وكانت ، كما يقول ، كثيرة جدا ، مشهورة بين أرباب الفن وأهل الغناء ، وليته عنى بتسجيلها وحفظها كلها .

حفظ لنا موشحة من شعره ، يقول إنها كانت مشهورة أيضا بين « أهل المغانى والآلاتية » .

أولها :

فيك كل ما أرى حسنْ ... مذ رأيت شكلك الحسن

جلّ من به عليك من ... أيها الذى الصدودَ سن

من لسيف أدعجيك سن ... مذْ حرمتَ مقلتى الوسن

مدمعى دماً ، نما ... عنـــد ما هما

روى باللمـــا ، ... ظما من تألمـــا

إن صبك النحيل إن ... جن ، كلما الظلام جن

بالشجا ينوح ... والشـــــجن

وهذا الشعر قد تراه الآن غريبا شاذا . ولكنه كان ، هو وغناءه : مما يروق لأهل ذلك العصر ويعجبون به إعجابا شديداً . وهذه الموشحة قيلت فى مدح الأمير حسن بك رضوان .

وقبل أن أترك الشعر والنثر إلى غيره من نواحى الحياة الفكرية والاجتماعية ، لا أجد بداً من تسجيل شعر لم يدونه الجبرتى ، ولكنى سأذكره . لأننا ندرك منه ، ذلك المدى الذى وصل إليه الشعر ، فى ذلك العصر ، من الضعف والانحطاط والغثاثة والبرود .

فهذه أبيات من الشعر ، نقشت على رخام وعلقت على مسجد السيدة زينب : —

نور بنت النبى ، زينب يعلو ... مسجدا ، فيه قبرها ، والمزار

قد بناه الوزير ، صـــدر المعالى ... يوسف ، وهو للعلا مختار

من مليك الملوك ، سلطان كلّ ... فى بنى عثمان ، إليه يشار

صاحب النصر ، والفتوح ، سليم ... نصر الله جيشه حين ساروا

وكذا خسرو ، محمد باشا ... من به عز مصر والأقطار

دام إجلالا ، كما قلت أرخ ... مسجد مشرق ، به أسرار[1]

ومن بيت التاريخ الأخير ، نعرف أن هذه العمارة فى مسجد السيدة زينب ، كانت فى سنة ١٢١٦ ، وأن الشعر قيل فى هذا التاريخ : ولم ينسب لقائله .

وهذا شعر آخر ، من شعر هذا العصر الذى نؤرخه . ولم يذكر قائله ،

(١) الخطط التوفيقية ، لعلى باشا مبارك ، ص ٨ ج ٥ .

وقد كتب هذا الشعر على باب المسجد الذى أنشأه الأمير ذو الفقار بك ، ويعرف بجامع الفسطاس ، وهو : —

جامعاً جاء لطيفاً ، وبديع الأنشا ... عالى السمك ، منيعاً ، ووسيع الأحشا
فى بيوت أذن الله لها أن ترفع ... والعبادات بها ، كل زمان ، تفشى
دام فيه صلوات ، وأقيمت دعوات ... بنهار متجلّ ، ونهار يغشى
ذو الفقار فاز بخير ، فقلا تاريخها ... عمر الجامع بالسعد ، بديع الأنشا[1]

وبيت التاريخ يعطى سنة ١٠٩١

ومن الشعر ، الذى لم يعرف قائله ، ويدل على مستوى الحياة الأدبية أيضاً ، هذه الأبيات ، التى سجل فيها منشئها عمارة الأمير عبد الرحمن كتخدا للأزهر.

تبارك الله ، باب الأزهر انفتحا ... وعاد أحسن مما كان ، وانصلحا
تقر عيناً ، إذا شاهدت بهجته ... بأخلاص بانيه للعلماء ، والصلحا
وادخل ، على أدب ، تلقى الهداة به ... قد قرروا حكماً ، ميزانها رجحا
بالباب قد بدأ الأكوان ، أرخه ... بعبد رحمن باب الأزهر انفتحا

ولعل هذ الشعر السخيف الركيك ، كان ينشئه شعراء مغمورون يتكسبون به . يقصد إليهم الأمراء والأغنياء ليسجلوا لهم نبأ ما أقاموا من عمائر ، أو بنوا من مساجد . لأن شعراء العصر لم يكونوا ، لأمرٍ ما ، ينشئون لهم مايريدون من شعر . فكان الأمراء وغيرهم يشترون هذا الشعر ، لينقشوه على الرخام ، والحجر. يلبون به داعى غرورهم ، بوضعه على مساجدهم أو عمائرهم . ثم لا يكتبون أسماء هؤلاء الشعراء وقد كان فى القاهرة ، إلى عهد غير بعيد ، شعراء يقرضون الشعر ليبيعوه كل مشتر وراغب .

وفى هذا الفصل من الكتاب ، وفى بعض فصوله الأخرى أيضاً ، نجد بعضاً من الشعر ، يزيد بتلاوته وفهمه ، إدراكنا لهذه الحياة الأدبية فى العصر الذى نؤرخه .

---

(١) خطط على باشا مبارك . ص ١١٣ ج ٤

الحيـــاة العقلية

شعاع من النور

وهناك ناحية من نواحى الحياة الفكرية ، قد يظن الناس ، كما ظننت أول الأمر ، أنها كانت جامدة كل الجمود . لم تتسم بحياة ، ولا نشاط ، ولا تجديد . والنشاط والحياة والتجديد فيها أشق ، وأعسر ، وأمعن فى المجازفة والمخاطرة من التجديد والنشاط فى هذه الناحية من الأدب والشعر . هذه الناحية العسيرة الشاقة ، هى حياة العقل والدين ، أو التقاليد الدينية ، على الأصح ، يحسبها الناس من الدين ، وهى ليست منه فى شىء .

وقد سجل الجبرتى قصة سأحرص الحرص كله على استيعابها ، وتلخيصها تلخيصا وافيا ، أمينا . لأنها تدل على أن هذه الحياة التى يعسر النشاط فيها ، ويشق التجديد ، لم تمكن بعيدة عن محاولات قام بها بعض المفكرين الأحرار ، لإصلاح بعض نواحى العقيدة . والبعد بها عما لابسها من الانحراف ، والميل ، بل الخضوع للبدعة الضارة ، المفسدة . وسأجعل لهذه المحاولة فصلا خاصا جعلت عنوانه « واعظ من الروم » وقبل أن أبدأ هذا الفصل ، أريد أن أنبه إلى أشياء مما يحيط بهذه المحاولة .

فأول هذه الأشياء : أن هذه المحاولة لمحاربة البدعة ، نبتت ونمت ، واستوت على ساقها ، ثم زكت ، بعيدة عن الأزهر . فصاحب هذه الدعوة ، لم يلق دروسه فى الأزهر ، ولم يكن يستطيع ، بداهة ، أن يفعل ذلك . بل إن الأزهر هو الذى أحبط هذه المحاولة لإصلاح ناحية من نواحى العقيدة عند أهل مصر فرجال الأزهر ، ورجال العقيدة التقليدية ، كالقاضى التركى ، هم الذين قضوا على هذه المحاولة البارّة ، ولم يقر لهم قرار ، إلا بعد أن أيقنوا أنها وئدت ، ولن تولد مرة أخرى .

والثانى من هذه الأشياء ، أن صاحب هذه الدعوة ، لم يكن مصرياً ، بل كان

تركياً ، وليت الجبرتى أفصح لنا عن منشئه وهويته .

وثالث هذه الأشياء ، أن هذا الواعظ الرومى ، لم يكن مقلداً لصاحب الدعوة الوهابية ، ولا متأثراً بهذه الدعوة ، فقد ولد محمد بن عبد الوهاب ، منشئ المذهب الوهابى ، سنة ١١١٥هـ ، ومات فى سنة ١٢٠٦ ، بينما ظهر هذا الواعظ فى القاهرة وألقى دروسه فى مسجد المؤيد سنة ١١٢٣ . ففى هذا الوقت ، الذى كان يدعو فيه أهل مصر إلى ترك البدعة ، كان محمد بن عبد الوهاب ، فى الثامنة من عمره .

وقد نرى، الآن ، مادعا إليه هذا الواعظ الرومى ، أمراً مألوفاً ، لاشىء فى الجهر به ، أو الدعوة إليه . ولـكنه ، من غير شـك ، كان شيئاً خارجاً ، كل الخروج ، عن مألوف الناس وعقيدتهم . وكان القائل به ، بله الداعى إليه . يحتاج إلى أعظم قسط من الشجاعة والإيمان .

وإذا رجعنا إلى ما كتبه الجبرتى عن اعتقاد الناس ، فى عصره ، فى الأولياء ، وما وصف به أعمالهم فى الموالد[1] فلا بد أن نعجب بشجاعة هـذا الواعظ . وهذه هى قصته : —

---

(١) نجد ذلك فيما يلى من هذا الفصل .

واعظ من الروم

يروى الجبرتى فى حوادث شهر رمضان من سنة ١١٢٣ أن واعظاً رومياً ، أى تركيا ، جلس يعظ فى جامع المؤيد ، وكثر عليه الناس وازدحم المسجد بهم وكان أكثرهم من الأتراك . ثم « انتقل من الوعظ وذكر مايفعله أهل مصر بضرائح الأولياء ، وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء ، وتقبيل أعتابهم وفعل ذلك كفر يجب على الناس تركه ، وعلى ولاة الأمور السعى فى إبطال ذلك . وذكر أيضاً قول الشعرانى فى طبقاته إن بعض الأوليـاء أطلع على اللوح المحفوظ أنه لا يجوز ذلك ، ولا تطلع الأنبياء ، فضلا عن الأوليـاء ، على اللوح المحفوظ ، وأنه لا يجوز بناء القبـاب على ضرائح الأولياء ، والتكايا ، ويجب هدم ذلك . وذكر أيضاً وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان »

هذه كانت دعوة هذا الواعظ الرومى ، وهى كما ترى دعوة جريئة كل الجرءة ، خصوصاً فى هذه البيئة وهذا العصر . وقد دعا إليها مفـكرون أحرار ، بعد هذا الرومى بقرنين من الزمان ، فجبههم « العلماء » ورموهم بالـكفر والمنـكر .

وقد انتقـل الواعظ الرومى من الوعظ ودعوة « ولاة الأمور » لترك هذه العقائد والعادات التى يراها مكفرة لفاعليها ومعتقديها . انتقل الواعظ ورجاله من القول إلى العمل ، وأرادوا تقـويم الناس بالعصى بعد أن لم يقوّمهم الوعظ « فخرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبابيت والأسلحة على باب زويلة فهرب الذين يقفون به . فقطعوا الجوخ والأكر المعلقة[1] وهم يقولون : — أين الأولياء ... »

عند ذلك أسرع بعض الناس إلى علماء الأزهر ليفتوهم فى قول ذلك الواعظ . فـكتب شيخان من شيوخ الأزهر ، هما الشيخ أحمد النفراوى ، والشيخ أحمد الخليفى

(١) كان الناس يعتقدون أن تعليق هذه الأشياء على باب زويلة يقضى حوائجهم ، ولايزال بعض العوام يعتقد ذلك .

ينقضان قول الواعظ ، ويطلبان من الحاكم زجره على ماقال . وأخذ بعض هؤلاء الناس هذه الفتوى فدفعوها إلى الواعظ فى مجلس وعظه . فلما قرأها غضب ، وقال إن العلماء أفتوا بغير ما قلت ، وأنا أريد أن أجادلهم فى مجلس القاضى ، فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق ...؟ فقال له أنصاره : نحن معك لانفارقك ، فنزل عن كرسىّ وعظه . واجتمع عليه من الناس قريب من ألف ، فسار بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضى . فلما رآهم القاضى بهذه الكثرة انزعج منهم ، ثم سألهم عما يريدون ، فقالوا نريد أن تحضر الذين أصدرا هذه الفتوى لنباحثهما أمامك ، فقال القاضى : — إصرفوا هؤلاء الجموع ثم نحضرها ونستمع إلى مجادلتكم معهم . ولكن أحداً من الجموع لم ينصرف ، بل تكاثروا على القاضى وقالوا له : — ماذا تقول أنت فى هذه الفتوى ...؟ قال هى باطلة . ! فطلبوا منه أن يكتب حجة بذلك . فلما رأى القاضى أن الأمر جد ، وأنهم لا يريدون أن يتركوه ، أراد أن يعمل فيهم الحيلة ، فقال للواعظ ومن معه ، إن الوقت قد ضاق والشهود قد خرجوا ، فلنترك ذلك إلى غد . فلما سمع الناس من ترجمان القاضى هذا الكلام ضربوه ، واختفى القاضى ومعه حريمه ، ولكن الناس لم يتركوا نائب القاضى حتى كتب لهم الحجة بصواب رأى الواعظ الرومى ، وخطأ رأى الشيخين ، النفراوى ، والخليفى .

وقصد الناس بعد ذلك يوما إلى مسجد المؤيد لسماع واعظهم فلم يجدوه ، ثم قال قائل منهم إن القاضى منعه من الوعظ « فقام رجل منهم وقال : أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليقم معى ، فتبعه الجمع الغفير ، فمضى بهم إلى مجلس القاضى . فلما رآهم القاضى ومن فى المحكمة ، طارت عقولهم من الخوف ، وفر من بها من الشهود ، ولم يبق إلا القاضى ، فدخلوا عليه وقالوا له : — أين شيخنا ...؟ فقال : لا أدرى ، فقالوا له : قم واركب معنا إلى الديوان ونكلم الباشا فى هذا الأمر ، ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم ، فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا ، وإلا قتلناهم . فركب القاضى معهم ، مكرها ، وتبعوه من خلفه وأمامه ، إلى أن طلعوا إلى الديوان ، فسأله الباشا عن سبب

حضوره فى غير وقته ، فقال : — إنظر إلى هؤلاء الذين ملؤا الديوان والحوش ، فهم الذين أتوا بى ، وعرفه عن قصتهم »

فلما عرف الباشا قصة القوم والواعظ ، أعطاهم أمراً بأن يحضر الشيخان النفراوى والخليفى لمجادلة الواعظ ، فذهب القوم إلى جامع المؤيد وأتوا بواعظهم وأصعدوه على كرسيه ، واتفق معهم على أن يجتمعوا بالمؤيد فى اليوم التالى ثم يذهبوا إلى القاضى لينجز ما أمر به الباشا من إحضار الشيخين .

ولكن أمر الباشا هذا كان كفتوى نائب القاضى ، كتب كما كتبت ، لتسكين الفتنة ، وصرف الناس . فإنه ، بعد أن أخذت جماعة الواعظ من الباشا مايريدون من أمر ، أصدر الباشا أمراً آخر « إلى إبراهيم بك ، وقيطاس بك يعرفهم ما حصل ، وما فعله العامه من سوء الأدب ، وقصدهم تحريك الفتن وتحقيرنا نحن والقاضى . وقد عزمت ، أنا والقاضى على السفر من البلد » .

فلما قرأ ابراهيم بك وقيطاس بك وبقية المماليك ذلك ، لم يقر لهم قرار حتى نفى الواعظ من البلد وتفرق الناس من حوله . « وأمروا الأغا أن يركب ، ومن رآه منهم قبض عليه ، وأن يدخل جامع المؤيد ويطرد من يسكنه من السقط[1] » ، أى من العوام .

وهكذا أخرج من القاهرة[2] هذا الواعظ الرومى ، الذى أراد أن يخرج بالناس عن مألوفهم ، وأن يخالف ما يفتى به العلماء فى الأزهر ، وما يعتقده العامة ويحرصون على فعله .

وقد أرخ الشيخ حسن الحجازى ظهور هذا الواعظ ونفيه فى قصيدة أولها :

مصر قد حل بها واعظ ... عن منهج صدق قد أعرض
أبدى ، جهلا ، فيها قولا ... منه الحبلى ، حالا ، تجهض .!

---

(١) ص ٤٩ — ٥١ من الجزء الأول .

(٢) يروى أمين باشا سامى ، نقلا عن همّر ، أن هذا الواعظ نفى سرا إلى الشام . ونقل عنه أيضاً أنه دعا لهدم التكايا . وقال إن الدراويش أولى بهم أن ينصرفوا لطلب العلم بدل عكوفهم على الرقص ؛ وذكر أن الناس تأثروا كثيرا بدعوته فلما نفى عاد الناس شيئاً فشيئاً لما كانوا فيه .

فأساء الظن بسادات أحكام الدين ، بهم ، تنهض

وهى قصيدة ، كما ترى ، على وزن القصيدة التى كان يتغنى بها الشحاذون على أبواب المساجد ، والتى أولها : الحمد لربٍ مقتدر .

ومن هذه القصة ، نرى أنه ، على رغم الظلم والظلام الذى كانت تعيش مصر تحت سطوته ، فى ذلك الوقت ، نرى أن حركة تحريرية مثل هذه وجدت لها مكانا فى عقول الناس ، حتى تبع هذا الواعظ ألف من رواد المساجد ، يقتحمون بيت القاضى وديوان الحاكم . وكان من الممكن أن تثمر هذه الحركة التحريرية ثمرتها ، لو لم يقض عليها العلماء ، والقاضى ، والباشا .

ومن هذه القصة أيضاً . ومن تصرفات القاضى ، ونائبه ، والباشا ، نستطيع أن نحكم على مستوى الأخلاق عند أصحاب السلطة ، الدينية والزمنية ، إذ ذاك .

وقد رأينا ، فى ترجمة الشيخ حسن العطار ، أنه كانت عنده نزعة لطيفة للتحرر ، ودعوة هادئة لاخراج مصر من قيود التقليد ، يمكن أن نذكرها عند ذكر هذا الواعظ الرومى ودعوته .

أما الحياة العلمية ، فكانت سمتها الغالبة ، الأتجاه إلى الحفظ . ولذلك كان يكثر نظم العلوم المتداولة شعراً ، ليسهل حفظه . وهذه السمة إستمرار لطريقة سادت الحياة العلمية عند تأخر العقلية الاسلامية ، وجفاف مواردها . ونجد كثيراً من الأمثلة على ذلك فى صفحات مختلفة من الجبرتى .

بيت الشرابى

ولا يكون الحديث عن الشعر والنثر ، والحياة الفكرية والعقلية لهذا العصر كاملا ولا وافياً ، إلا بذكر قوم ، ليسوا من الشعراء ، ولا من الناثرين ، ولا من أهل الفكر . بل كانوا تجاراً . ولكن لهم ، فى هذه الحياة الفكرية ، أثر كبير . وهم بيت الشرابى .

كان آل الشرايبى من كبار التجار ، وكان بيتهم من بيوت المجد والعز والفخر . مماليكهم ، وأبناء مماليكهم ، من أعيان مصر وأمرائها . وكانوا ذوى ثراء فاحش . ورفاهية . وكانت بيوتهم ، فى الأزبكية ، تشتمل على إثنى عشر مسكناً ، وكل مسكن بيت مستقل ، فسيح . يتردد عليهم فيها الأمراء ، من غير موعد ، ولا دعوة . ويقصدهم فيها الشعراء ، والمادحون .

وكانت فى بيوتهم مكتبة عامرة . فيها أندر الكتب ، وأغلاها ثمناً ، يرغبون فى شرائها ، ويدفعون فيها نفيس المال . ثم يضعونها فى هذه المكتبة ، ويبيحون لمن شاء من العلماء ، وأهل الأدب ، أن يطالع فيها ، وقتما يشاء ، وكيفما يريد ، فهى موضوعة على الرفوف ، والخزائن . لا يكتبون عليها وقفية . ولا يدخلونها فيما يتوارثونه من مال ، وهى مال جسيم .

وكان من رغب ، من زوار بيتهم من العلماء وأهل الأدب ، فى أن يطالع كتابا فى أى علم ، أو فن . وجد ما يبتغى ميسوراً مباحاً . فإذا أراد أن يأخذ ما يشاء من كتب إلى بيته ، أو مسجده ، أو بلده ، أخذه . ولو لم يعرفه أحد من أصحاب البيت . فهم لا يمنعون راغباً عن كتاب ، مهما يكن الحال . وكان بعض من يأخذ الكتب من بيت الشرايبى ، لا يردها . بل يبقيها ، فلا يسأل عنها . وقد يبيعها ثم تعود إليهم مرة أخرى ، فيعودون إلى شرائها ، معتذرين عمن أخذها فباعها بأنه قد يكون محتاجاً ، وقد يخرج الكتاب من خزائنهم ، فيباع عليهم مرة بعد مرة ، وهم يشترونه راضين . ويضعونه ، فى كل مرة ، حيثما كان ، ميسورا مباحا ، لمن يقرأ ، مبذولا لمن يأخذ .

وكان بيتهم يفتح دائماً لكل طارق ، ولا ينقطع منه الضيف . ولا يرد عن طعامه سائل ، ولا جائع ، ولا محتاج .

وقد مات كبير بيت الشرايبى هذا ، الخواجا الحاج أحمد بن محمد الشرايبى ، حوالى سنة ١١٧٠ .

وكان آخر هذه الطبقة من بيت الشرايبى ، شقيقه إبراهيم ، المشهور بابن الدادة ، صديقاً حميما للجبرتى . ومات فى سنة ١٢٠٥ .

وكان لهذه الأسرة نظام عائلى فريد . يختارون منهم كبيراً ، يكلون إليه أمر أموالهم ، يتميها ويستثمرها ، ويقوم على حسابها العام كله . فاذا تجمع لديه ، آخر العام ، ربح هذه الأموال ، قام بدفع ما عليهم جميعاً من الضرائب . ثم أعطى كل فرد من أفراد الأسرة ، رجلا أو امرأة ، ما يلزمه لكسوة الصيف ، ثم لكسوة الشتاء . وخصص لكل منهم ، فى كل شهر ، قدراً من المال ينفق منه على حاجته . وهو يعطى هذه النفقات الشهرية لكل منهم حسبما يرى أنه يكفيه ويستحقه . وهم لا يعترضون . وعند ما تبقى فضلة من المال فى نهاية العام ، يفرقها عليهم ، حسب حاجتهم ، واستحقاقهم .

ويقول الجبرتى إن هذا النظام ، الاشتراكى ، بقى سائداً فى بيت الشرايبى زمناً طويلا .

وكان من تقاليد هذه الأسرة ، أن يتزوج أفرادها فيما بينهم . فشبابهم يتزوج من فتيات الأسرة . ولا يتزوج من غيرها . وكذلك فتياتها .

وفى خطط على باشا مبارك أن بيت أسرة الشرايبى كان فى ميدان العتبة الخضراء . وكان يعرف ببيت « الثلاثة ولية » . وأن السيد محمد الشرايبى بنى فيه مسجداً عرف باسمه ، ثم عرف فيما بعد باسم جامع البكرى . وبيت الشرايبى هذا ، اشتراه الأمير رضوان كتخدا فيما بعد . وجعل منه قصوراً باذخة . تحدثنا عنها فى مواضع أخرى من الكتاب . وبقى جزء من هذا البيت كانت فيه ، إلى سنين غير بعيدة ، المحكمة المختلطة القديمة .

حياة الناس

فى القاهرة

نرى فى هذا السجل الحافل ، الذى سجل به الجبرتى كل صغيرة وكبيرة من تاريخ عصره ، هذه الحياة المصرية الصميمة حية تفيض بالحياة والقوة .

فهو يسجل هذه الحياة الاجتماعية التى كان الناس يحيونها فى القاهرة والريف . وكيف كانت هذه الحياة تسير بهم ، أو يسيرون فيها ، يوما بعد يوم . وعاما بعد عام . ويذكر ما كان فى القاهرة من قصور مشيدة ، وحدائق . وما كان يفيض بين أيدى أهلها من الأمراء والتجار والعلماء أيضا ، من الثروة . وما كانوا ينعمون به من رغد العيش وطيب الحياة . ويذكر ما كان ينال الناس من شقاء ومن مرض وفقر . حتى لا يجدوا ما يطعمون ، فيأكلون الجيفة ، والحمير ، والقطط . ويجدون أنفسهم سعداء ، إذا وجدوها ، بعد سعى ، وجهد ، وطول معاناة .

وهو يصف ، أيضا ، ما كان بين الناس من مودة ، وتعاطف ، وبر . وما كان عند أغنيائهم من أريحيّة . وعند فقرائهم من أمانة . ويذكر أيام القاهرة ، ومواسمها . التى يحفل بها الناس ، ويبتهجون فيها . ويذكر شيئاً قليلا يشير به إلى حياة الفن والغناء ، وإلى ملاعبهم وأفراح السادة منهم .

الثروة والنعيم

أما ثروة الأمراء ، المماليك ، وما كان فى قصورهم من النعيم والترف ، فقد كان يسيراً على الجبرتى أن يصفه ، حيث كان صديقا لكبارهم ، يزورهم فى هذه القصور ،

ويشاركهم فى بعض هذه الحياة المترفة التى كانوا يحيونها ، ويحوصون على أن يبلغوا بها غاية ما يستطاع من رفاهة ومن رغد[١] .

كان للسيدة زليخا ، زوجة إبراهيم بك ، تاج من الجوهر . ولم يكن كل ما تملك من الجواهر والذهب .

« وعندما زار فولنى مصر ، فى أواخر القرن الثامن عشر ، قدر عدد المماليك بنحو ٨٥٠٠ مملوك ، من الرؤساء ، الذين ينفق الواحد منهم ، على سلاحه وملبسه ، وزوجته ، وسراريه ، نحو ألفين وخمسمائة جنيه فى العام . وهذا تقدير شاهد عيان[٢] » .

وكان من عادة هؤلاء المماليك ، إذا أعتقوا واحدا من مماليكهم الصغار ، أن يخلعوا عليه الخلع الثمينة ، والثياب الغالية ، من صناعة الهند ، وحرير الشام . ويقدموا له البيوت ، بل القصور ، المؤثثة بالرياش الفاخر ، والجوارى والخدم . ويهدون له أصائل الخيل ، وقد يزوجوه .

وكذلك كانوا يصلونهم ، فى الأعياد والمواسم ، بالهدايا الكثيرة ، الكبيرة القيمة .

وحين هرب على بك ، بعد أن خذله أنصاره ، إلى الشام . التجأ إلى صديقه الشيخ ظاهر فى عكا ، وأخذ معه ، من الأموال ، ثمانمائة ألف محبوب ذهبا ، على خمسة وعشرين جملا . ونقل معه أيضاً ، من المصوغ والحلى ، ما قدرت قيمته بمبلغ ثلاثة ملايين محبوب ذهب . أى ما قيمته الآن حوالى ستة وتسعين ألف جنيه .

وقد وصف فولنى ، فى رحلته إلى الشام[٣] ملابس جنود على بك وصفا دقيقا ، فقال إن ملابسهم تتكون من أربعة ، أو خمسة ، أردية وطيلسانات ، تتدلى على

---

(١) انظر ماوجد فى قصر مراد بك ، بعد فراره . فى الجزء الثالث من الكتاب

(٢) ص ١٥٠ من كتاب « المماليك فى مصر » للأستاذ أنور زقلمة .

(٣) قام فولنى برحلته إلى مصر وسوريا سنوات ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و ١٧٨٥ . وهو كاتب فرنسى .

أرجلهم . وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الأبيض ، والثوب المتدلى فوق القميص ، من القماش الهندى الخفيف . وفوق ذلك القفطان من حرير مزركش ، تمتد أكمامه حتى أطراف الأصابع . ثم « الكرك » بأكمام قصيرة . ويطوف ، حول الرقبة ، فراء من السمور . ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه فى الحفلات ، يلف به جسمه جميعه . وكان عدد هذا الجيش أربعين ألف مقاتل[١] .

وكان مقبض الخنجر الذى يحمله على بك ، يقدر ثمنه بمائتى ألف جنيه[٢] .

وبنى حسن كاشف لنفسه قصراً من أجمل القصور . أنفق عليه ، كما يقول الجبرتى ، أموالا عظيمة . وقبل أن يتم بياضه دخل الفرنسيون القاهرة ، فخصصه نابليون لإقامة أعضاء المجمع العلمى ، الذى كان يرافقه ، وقد كتب أحد أعضاء هذا المجمع يصف هذا القصر ، وقصر قاسم بك ، الذى كان يجاوره ، وخصص لأعضاء المجمع الفرنسى أيضا ، كتب يقول : — « إن فى هذه القصور ، من أسباب الفخامة ، ما لا يقل عن اللوفر . وإنا لنجد فيها ، من أسباب الراحة ، أكثر مما فى اللوفر . وبجوارها حديقة فسيحة ، تبلغ مساحتها نحو خمسة وثلاثين فدانا . جيدة الغراس . أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزدانة بأجمل ما فى قصور المماليك من الأثاث[٣] » .

وكان قصر حسن كاشف هذا فى الناصرية . ومكانه الآن المدرسة السنية .

وكانت للأمير عبد الرحمن كتخدا ، صاحب العمائر الكثيرة ، الضخمة ، دار بحارة عابدين ، نقشت مجالسها بالذهب المموه ، واللازورد . وصبغت جدرانها بالأصباغ البهيجه ، البديعة الصنع . وزخرفت بالرخام والقيشانى وغرس إلى جوارها بستانا عظيما ، أقام فى داخله مجلسا تتوسطه أحواض المياه المفروشة بالرخام ، وأقيمت قاعة المجلس نفسها على أعمدة من الرخام الأبيض .

---

(١) ص ١٥٠ — ١٥١ من كتاب « المماليك فى مصر » لأنور زقلمة .

(٢) ص ٢٧ من كتاب « تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل » تأليف جورج يانج . الترجمة العربية .

(٣) ١٢٢ ج — ١ — من كتاب « تاريخ الحركة القومية » لعبد الرحمن الرافعى .

وبنى الأمير يوسف بك داراً على بركة الفيل ، تجاه جامع ألماس ، ظلت عمارتها مستمرة خمس سنين . وجاءه يوما ، من أراضيه فى الصعيد ، ثمانون ألف أردب من القمح ، فصرفها كلها أجورا على البنائين ، وثمنا للأحجار ، والحديد ، والخشب ، والجبس ، والجير . الذى كان يحتاجه لبناء هذه الدار .

وكان لمحمد بك الألفى بيت متنقل ، بل قصر مصنوع من الخشب . مجزؤ إلى قطع متفرقة . تحمل على الجمال عند ما يريد السفر . ثم تركب ويضم بعضها إلى بعض ، وتربط بأربطة من الحديد . فيتكون منها بيت لطيف مرتفع عن الأرض بثلاث درجات . ويفرش بالطنافس الغالية ، والوسائد الحريرية والأسرة . وله سقف مرفوع . ونوافذ تفتح وتغلق ، حسبما يشاء .

وقد بنى الألفى ، فى سنة ١٢١١ قصرا من قصوره ، على بركة الأزبكية ، وبعد أن تم منه الطابق الأول ، لم يعجبه ، فأمر به فهدم ثم أمر ببنائه من جديد ، على وضع آخر . واختار أربعة من أمرائه يقفون للأشراف على البناء .

وطلب له الصناع ، والأخشاب ، والمؤن . حتى أوشك الناس ألا يجدوها . وأنشأ طواحين خاصة لطحن الجبس لقصره هذا . ولما أتمه جعل على نوافذه شرائح الزجاج الملون . والبلور الصافى النقى . حتى قدرت الشريحة الواحدة من البلور بخمسمائة درهم . ثم فرش القصر بالطنافس الغالية ، وعلقت فيه الستائر ، والوسائد المزركشة المقصبة . وبنى فيه حمامين ، فى كل طابق حمام . وعلق فى حجراته النجف ووضع فيها أشياء ثمينة أهديت إليه عند ما سافر إلى إنجلترا . وأنشأ فى طابقه الأول قاعة كبيرة لجلوسه فيها حوض كبير للماء ، فيه سلسبيل من الرخام مركب من قطعة واحدة . وله نافورة كبيرة يندفع فيها الماء . ومن حولها نافورات أخرى صغيرة على هيئة أسماك تمج الماء من أفواهها . وغرس إلى جوار هذا القصر بستانا عظيما .

وقد أقام الألفى فى قصره هذا نحو عشرين يوماً من شهر شعبان سنة ١٢١٢ ثم دخل الفرنسيون مصر . فاتخذه نابليون سكناً له . ثم سكنه من بعده الجنرال

كليبر ، بعد سفر نابليون من مصر . ثم الجنرال عبد الله منو بعد قتل كليبر .. ثم سكنه محمد على بعد ذلك .

وكان للأمير رضوان كتخدا الجلفى بيت عظيم « ليس له نظير فى عمارته وزخرفته ، وكلفته . وسقوفه من أغرب ماصنعته أيدى بنى آدم ، فى الدقة والصنعة وكله منقوش بالذهب ، واللازورد ، والأصباغ . وعلى مجالسه العليا قباب مصنعة ، وأرضه كلها بالرخام الملون » .

وقد أنشئت ، فى وصف هذا القصر ، ومدح صاحبه ، قصائد كثيرة . منها قصيدة الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى . رأينا طرفاً منها من قبل ، وقد نجد أيضاً فى موضع آخر من هذا الفصل ، شيئاً من مظاهر الثروة والنعيم عند المماليك .

وقد ذكر الجبرتى خبر هدية أرسلها الأمير اسماعيل بك كبير المماليك ، إلى السلطان مصطفى الثالث[1] فكان منها ستة سروج للسلطان وأولاده . وكانت مع السروج عبائات ، هى وقصاعها وقربوسها ، مرصعة جميعاً بالجواهر والذهب . والركابات واللجامات والشمارخ والسلاسل كلها أيضاً من الذهب الخالص . والرأس والرشمة من الحرير المنسوج بسلوك الذهب وشمارخ المرجان والزمرد ، وجميع « الشراريب » من القصب والمرجان .

وقد صنعت هذه السروج أدق صناعة وأجملها فى بيت محمد أغا البارودى . وأرسل مع هذه الهدية كثيراً من القدور والأوانى الصينية الجميلة . مملوءة بأنواع مختلفة من الشربات ، كالورد والبنفسج ، ومن العطور كالصندل الممزوج بالمسك ، والعنبر ، وماء الود المكرر ، ومن المربات الهندية مثل القرنفل والزنجبيل . وأرسل معها عددا من أجمل الجياد ، وأقمشة هندية رقيقة ، وعودا وعنبرا ، وطرائف كثيرة . وقدر ثمن القدر الواحدة التى وضعت فيها هذه الأشربه أو العطور — وهى فارغة — بمائة دينار أو أكثر .

ووصف هذه الهدية لايدل فقط على الثروة التى كانت تسيل بين يدى المماليك .

---

(١) تولى من ١٦ صفر ١١٧١ الى ٨ ربيع الأول ١١٨٧ [١٧٥٧ — ١٧٧٣ م]

بل يدل أيضاً على أن القاهرة لم تخل من الصناعة الدقيقة الجميلة ، ولا من الذوق الرفيع الأنيق . رغم مافعل بها السلطان سليم بعد فتحها ، مماسجلناه فى موضعه .

وقد أقام اسماعيل بك الدالى حفلا لزواج ابنه ، دعا إليه عثمان باشا الحلبى . فلما انتهى الحفل وضع بين يدى عثمان باشا منديلا فيه ألف دينار . ورجا منه أن يفرقها « بقشيشاً على الخدم وأرباب الملاعيب » .

أما ثروة التجار، وأموالهم ، فيكفيك ، لتقديرها ، أن تذكر ماوراه الجبرتى . عند حديثه عن إحدى الفتن التى وقعت بين الحكام فى القاهرة . من أن بعض الجند لحق بالسيد أحمد المحروق ، كبير تجار مصر ، وكان طرفا فى هذه الفتنة . فسلبه عشرين ألف دينار اسلامبولى ، كانت فى ثيابه .

وفى سنة ١٢٠٢ أغار الأعراب على قافلة للحجاج والتجار، قادمة من السويس فنهبوا منها ، للتجار وحدهم ، ستة آلاف جمل تحمل البضائع ، من الأقمشة ، والبن ، والبهار .

وقد ذكر الجبرتى ، فى حوادث سنة ١١٣٥ ، أن جماعة من الجند سطوا ، وهم سكارى ، على نسوة من « نساء الأكابر » كن يتنزهن فى غيط الأعاجم ، عند قنطرة الدكة بالأزبكية ، فسلبوهن ثيابهن وحليهن ، ثم جاء آخرون ومعهم كبير منهم ، فأكملوا سلبهن ، وعروهن من ثيابهن جميعاً .

ويذكر الجبرتى شيئاً كثيراً من الذهب والجوهر ، كن يتحلين به ويضعنه فى ثيابهن التى نهبت . وكان مع إحداهن غلام سلبت من على رأسه طاقية فيها جواهر وذهب . وسلب منها سروال شبيكة من الحرير الأصفر والقصب . وفى كل عين من الشبيكة لؤلؤة ، وفى تكة السروال أيضاً .

وقد منعت النساء من النزهة وركوب الحمير فى غيط الأعاجم بعد هذه الحادثه .

ولما مات الخواجا محمد الدادة ، وكان تاجراً ، ترك ألفاً وأربعمائة وثمانين كيساً. وكان يملك خان الحمزاوى ، وغيره من الوكائل ، والحمامات ، والجامكية ، أى المخصصات ، والأراضى وثلاث سفن تسير فى البحر الأحمر .

وقد رأينا فيما كتبناه عن « الأزهر والعلماء » ما كان يشغل بعضهم من أمر الدنيا ، وكيف كانت لهم القصور ، والضياع الواسعة ، ورأينا ، فيما كتبنا عن الحملة الفرنسية ، أن غرامة فرضت على أهل القاهره . فكان ما طلب ، من الشيخ محمد السادات ، خمسون ألف فرنك . ومن الشيخ مصطفى الصاوى خمسون ألف أيضاً . كما فرضت خمسون ألفا اخرى على الشيخ محمد الجوهرى وأخيه .

وعندما مات الشيخ محمد شنن ، شيخ الأزهر ، سنة ١١٣٣ ترك لابنه موسى أربعين ألفا من الذهب البندقى . إلى جانب ثروة أخرى من النقود والفضة . والأملاك والضياع ، والوظائف والحاكى . ويذكر الجبرتى فى ذلك ما يدل على ما كان يسود الناس ، فى ذلك الوقت ، من الإخلاص ، والثقة ، والأمانة ، فيقول إن هذه الثروة العظيمة ، تركها الشيخ شنن أمانة عند الشيخ محمد الجداوى ، حتى يكبر ابنه موسى . فلما مات ، أداها الشيخ الجداوى كاملة إلى موسى هذا . بعد أن حفظها سنين ، . ويبدد موسى هذه الثرة كلها .

وكذلك كانت لمن يتصلون بالحكم والحاكين ثروات طائلة . يذكر الجبرتى أن محمداً علياً غضب ، أو تصنع الغضب ، على المعلم غالى ، كبير المباشرين ، وأمر بتفتيش بيته . فوجدت عنده نيف وستون جارية بيضاء ، وسوداء ، وحبشية ، وخلعه محمد على من وظيفته . فصالح المعلم غالى على نفسه . ودفع له أربعة وعشرين ألف كيس ، فأعاده إليها .

ومن مظاهر الثروة والنعيم ما ذكر عن حفلة المولد النبوى ، التى أقامها السيد خليل البكرى فى بيته . وحضرها نابليون . فقد بسط خمسين مائدة ، على كل واحدة منها خمسة أو ستة يجلسون على الوسائد . وكانت الأطباق على المائدة التى جلس عليها نابليون والبكرى ، من الفضة .

حياة الفن

هذا الثراء ، وهذه الحياة الرغدة . كان لا بد لأصحابها من حياة اجتماعية بهيجة ومن ثقافة فنية . ولكن الجبرتى لم يوف هذه الناحية حقها من التسجيل ، إما لأنه

شيخ أزهرى . وإن كان من أهل الثراء ، وسادة المجتمع . وإما لأنه لم يكن يعتقد أن هـذه الناحية مما يستحق أن يحفل بتسجيله . وقد يكون كلا الأمرين سبباً لهذا القصور .

وقد ذكرنا فى تراجم بعض أهل الفكر أنهم كانوا يجيدون العزف على العود وبعض الآلات الموسيقية . كما ذكرنا أن بعض شيوخ الأزهر كان ينظم الأغانى والغزليـات والتواشيح . بل رأينـا قسوته على العلماء خاصة ؛ لأسرافهم فى السماع واللهو .

وذكر الجبرتى أسماء بعض المغنين . والعازفين على العود ، والقانون ، والناى والكمنجة . وهم ، ابراهيم الوراق ، والحبابى ، وقشوه ، وقال إنه كان لهم مرافقون يصحبونهم . ولـكنه لم يترجم لأحد منهم . وكان ورود أسمائهم فى سياق ترجمة أحمد باشا طوسون ، ابن محمد على ، حيث قال إنه أخذ أهل الفن هؤلاء مرافقين له فى معسكره الذى كان يتنقل به بين القاهرة والإسكندرية ورشيد .

كما ذكر ، فى تراجم كثير من المماليك ، والأعيان ، والعلماء ، أنهم كانوا يقيمون مجالس الغناء .

ولـكن مباهج الحيـاة ، والاستمتاع بالغناء ، والموسيقى . لم يكن قاصراً على هذه الطبقة المترفة من أهل الثراء والجاه . بل كان للقاهريين عامة نصيب كبير من هذه المباهج وهذا المتاع .

وفى وصف الجبرتى لحفلات كسر الخليج ، أى وفاء النيـل ، ما يدل على أن أهل القاهرة كانوا ينالون فيها من المرح ، والبهجة ، شيئـاً كثيراً . حتى أنهم كانوا ، فى بعض السنين يسرفون فى هذا المرح . ويخرجون به عن الحد . وكثيراً ما سلط عليهم الباشا ، أو الحاكم ، جنداً شداداً ، ليحول دونهم ودون الخروج بهذه البهجة ، وهذا المرح ، إلى الاستهتار . وسنرى شيئاً من ذلك بعد قليل .

وكانت بركة الأزبكية ، مثابة أهل السرور ، ومكان التنزه ، وترويح النفس لمن يشاء . كانت ، فى أيام الفيضان ، يملأها ماء النيل . وتغـطى صفحة هذا الماء بالزوارق تعد للنزهة نهاراً وليلا . وفى المساء توقد القناديل على دائرة البركة ،

فى تلك القصور الزاهرة التى تحيط بها . كما توقد الزوارق التى تسبح على سطحها . فيأتلف من هذه وتلك منظر بهيج يسر النفس ، ويشرح الصدر . وخاصة فى تلك الليالى القمرية من صيف القاهرة الساحر . فيختلط ، كما يقول الجبرتى ، « ضحك الماء ، فى وجه البدور والقناديل ، وانعكاس خيالها كأنها أسفل الماء أيضاً ، وصدى أصوات القيان والأغانى ، فى ليال لا تعد من الأعمار » .

وقد أطنب الشيخ حسن العطار ، وغيره ، من أدباء ذلك العصر وشعرائه ، فى بركة الأزبكية ، وجمالها ، وما كان يحيط بها من القصور . وما كان لأهل القاهرة فيها ، وحولها ، من مباهج ونعيم . وقد رأينا بعضاً من ذلك أول هذا الفصل .

وكذلك كانت من أماكن النزهة والراحة ، بركة الفيل . وكانت تبنى على جوانبها القصور الواسعة ، وتنشأ الحدائق الجميلة فى داخلها وخارجها ومن الشعر الذى قيل فيها : —

أنظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت ... بها المناظر ، كالأهداب للبصر
كأنما هى ، والأبصار ترمقها ، ... كواكب ، قد أداروها على القمر

وكانت منازه الخليج أيضا ، والماء ينساب فيه رفيقا يسيرا ، فى ليالى الصيف ، بهجة لأهل القاهرة ومراحا ، ومكانا للهوهم وعبثهم ومتاعهم . حتى قيل فيه :

لا تركبن فى خليج مصر ... إلا إذا يسدل الظلام
يا سيدى ، لا تسر إليه ... إلا إذا هوّم النيام
والليل ستر على التصابى ... عليه ، من فضله ، لثام

وهذا الشعر لم يذكره الجبرتى . بل هو سابق على عصره الذى أرخه . ولكنه كان صادقا فى وصف هذه المنازه ومباهجها فى العصر الذى يؤرخه .

وقد أنشأ الأمير قاسم بك أبو سيف ، وكان يعرف بقاسم كاشف ، فى أحد قصوره على بركة الناصرية ، حديقة واسعة ، وكان هذا الأمير عارفا بالهندسة ، فأجرى فى هذه الحديقة مياه النيل بطريقة ابتكرها . وشق فيها طرقا ممهدة مستطيلة ومجارى للماء ، وغرس فيها الأشجار الباسقة ، والنخيل . وجعل هذه الحديقة طبقات ، يعلو بعضها بعضا ، والمياه تصعد إلى أعلاها عن طريق أنابيب خاصة .

وعند كل مصب لهذه المياه أقام مكانا للجلوس ، وعليه أشجار مظلة . وأباح الأمير دخول هذه الحديقة لمن يشاء . وسماها «حديقة الصفصاف والآس ، لمن يريد الحظ والإئتناس » ونقش ذلك الاسم على لوحة من الرخام ، رفعها على جذع شجرة ، على مدخل الحديقة .

وقد تكاثر الناس ، على حديقة الحظ هذه ، للنزهة والجلوس ، وأقيمت فيها المجالس ، والقهاوى . يجلس إليها المغنون والمطربون ، والناس من حولهم ، يرى بعضهم بعضا ، ويقصدون إليها من جميع الأطراف . وبعضهم كان يقضى فيها الليل كله ساهرا ، لاهيا .

كما كان يقصد إلى حديقة هذا الأمير كثير من الأعيان والكبراء ، يبيتون ليالى ، فى داخل القصر . بعد أن ينعموا نهارهم فيها . وكان يبيح لهم ذلك ، ويجىء لهم طعامهم من بيوتهم . ويقول الجبرتى إن هذه الحديقة « زاد بها الحال ، حتى امتنع من الدخول إليها أهل الحياء والحشمة » .

وقد سمع الجبرتى من الأمير قاسم ، الذى أنشأ هذه الحديقة ، أنه أنشأ ، فى الصعيد ، أعجب منها وأغرب .

وكذلك أنشأ فقيه من فقهاء الحنفية هو السيد سعودى اسكندر بيتا عظيما ، على بركة الأزبكية ، وغرس فيه حديقة عظيمة ، فيها قناطر وبوائك . وأباح دخولها للناس . فكان يجتمع فيها « عالم من أجناس الناس ، وأولاد البلد ، شىء كثير ، وبها قهاوى ، وبياعون ، وفكهانية ، ومغانى ، وغير ذلك . وتقف عندها مراكب وقوارب ، بها من تلك الأجناس . فكان يقع بها ، وبالجسر المقابل لها ، من عصر النهار إلى آخر الليل ، من الحظ والنزاهة ما لا يوصف[1] » .

(١) قصر هذا الفقيه ، هو الذى اشتراه ، فيما بعد ، محمد بك الألفى وأضاف إليه غيره فكان من هذه القصور ، بيته الذى سكنه نابليون كما ذكرنا من قبل .

أيام أهل القاهرة

مصر السعيدة ما لها من مثيل فيها ثلاثة فى الهنا والسرور
مواكب السلطان ، وبحر الوفا ومحمل الهادى ، نهاراً ، يدور

فى هذين البيتين ، جمع الشاعر أهم أيام أهل القاهرة ، التى يبتهجون بقدمها ، ويحتفلون بها ، ويظهرون فيها زينتهم : ويعلنون سرورهم .

أما مواكب السلطان ، فهى التقاليد التى كانت مصر تقوم بها لاستقبال « الباشا » الذى يختاره السلطان ، فى اسطنبول ، لحكم البلاد . ويسمى الوالى . وكانت العادة تجرى بأن يبلغ الوالى الجديد نبأ قدومه إلى الديوان فى القاهرة ، عندما يصل إلى الإسكندرية ، أو رشيد ، أو السويس . فيختار شيخ البلد ، وهو كبير المماليك ، وفداً منهم لاستقباله . وقد يحملون له معهم الهدايا ، فإذا كان طريقه إلى القاهرة على النيل ، ركب سفينة فخمة ، مزينة ، تحيط بها السفن الأخرى محلاة بالأعلام والبيارق . وفيها الطبول تدق ، والزمور تعزف . وكلما صادفتهم سفينة فى النيل ، انحدرت معهم إلى القاهرة . فيكون من هذا الأسطول النهرى مهرجان بحرى رائع . وعندما تصل سفينة الوالى إلى ساحل بولاق ، يذهب لاستقباله كبار المماليك ، والصناجق ، وتطلق المدافع . وقد يذهب شيخ البلد بنفسه لاستقباله فى بولاق . وبعد أن يرحب به مستقبلوه ، يسلمون إليه مفتاح القلعة ، مقر الحكم والسلطان .

وقد وصف الرحالة الفرنسى سافارى أحد هذه المواكب ، كما شاهدها فى المدة التى قضاها فى مصر من سنة ١٧٧٧ إلى نهاية سنة ١٧٧٩ ، وهى من العصر الذى نؤرخه ، فقال : « شاهدت ، بعينى ، وصول الباشا ، ودخوله المدينة ، فى موكبه وزينته ، رأيت الموكب تتقدمه فصائل من الجنود المشاة ، يسيرون صفين ، وموسيقاهم أمامهم . وأعلامهم تخفق فوق رؤوسهم . يليهم الفرسان ، وعددهم نحو خمسة آلاف إلى ستة آلاف فارس . يسيرون بنظام حسن . ويحملون الرماح الطويلة

تزينهم ملابسهم الفضفاضة اللامعة ، وشواربهم الكبيرة . فكان لهم منظر حربى يبعث الروعة فى النفوس . ويلى هؤلاء « البكوات » مرتدين الملابس البديعة ، وحولهم حاشيتهم من المماليك ، يمتطون صهوات الجياد العربية الأصيلة ، وعليها غواش موشاة بالذهب والفضة . رأيت أعنة خيول الأمراء مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة . وعلى خيولهم السروج ، تتلألأ بالذهب . وكل بيك يسير فى موكب ، على هذه الصفة . فكانت مواكبهم ، مجتمعة ، غاية فى الرونق والفخامة ، يزينها جمال الفرسان ، وشكل ملابسهم ، وحسن استوائهم على متون جيادهم . ويليهم الباشا ، يسير الهوينا . وتتقدمه كوكبة من مائتى فارس ، وفرقة من الموسيقى . وأمامه أربعة من الجياد ، يقودها أربعة من السواس ، وعليها غواشيها ، موشاة بالذهب ، مرصعة بالأحجار الكريمة . وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً ، وقد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة ، يتوهج سناها فى أشعة الشمس[1] » .

ويذكر الجبرتى استقبال الوالى هذا بقوله إنه جرى على العادة ، أو خرج الأمراء للاقاته . وأشباه ذلك .

وأما بحر الوفا ، فهو احتفال أهل القاهرة بوفاء النيل . وكانوا يسمونه ، أول الأمر ، كسر البحر ، لأن السد يكسر لتجرى مياه النيل فى الخليج ، ثم نفر المصريون ، بذوقهم المرهف ، من كلمة « كسر » فى هذه المناسبة ، فسموه « جبر البحر » .

وكان بلوغ النيل ، فى المقياس ، ستة عشر ذراعا ، إيذاناً بأفراح القاهرة بوفاء النيل . فيبلغ قاضى المقياس ولىّ الأمر أن النيل بلغ وفاءه . وينطلق المنادون فى شوارع القاهرة يزفون لأهلها البشرى . وفى اليوم الذى يحدد ، بعد ذلك ، يقام الاحتفال ، فتزين السفينة « العقبة » . كما تزين غيرها من السفن . وقد ترسل الدعوات لحضور هذا الحفل ، حيث يجتمع الوالى ونائبه . وشيخ البلد ،

---

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى . ص ٢٥ — ٢٦ ، جزء ١ .

كبير المماليك ، وقضى القضاة . وكبار العلماء والأعيان . ويكسر الوالى أو نائبه سد الجسر . فإذا جرى الماء فى الخليج ، يشق القاهرة ، وتفيض منه بركة الأزبكية وغيرها من منازه القاهرة ورياضها . خرج أهلها فى مباهجهم إلى المقياس والروضة وغيرها يتنزهون . وتطلق المدافع ، وتقام الزينات على البيوت ، وتضاء القناديل فيها . وعلى جنبات البركة . وتسير فى الخليج الزوارق المزينة تضيئها القناديل أيضاً وتصدح الموسيقى . ويغنى المغنون .

ويمضى أهل القاهرة نهارهم هذا وليلهم فى سرور ، وبهجة ومرح شامل . فإذا كانت القاهرة فى حرب ، أو مجاعة ، أو وباء . لم يكن يقام هذا المهرجان ، وقد يكسر الجسر ليلا ، فيرى الناس ماء النيل فى الخليج صبحاً ، ولم يقيموا له زينته ولا مهرجانه .

وأما خروج المحمل ، فكان يجرى الاحتفال به ، عادة فى النصف الأخير من شهر شوال ، فى كل سنة . يجتمع لذلك ، فى ميدان القلعة ، الوالى ، أو نائبه ، وكبار المماليك ، وأمير الحج ، والعلماء ، والأعيان . ثم يمر الجمل ، الذى يحمل المحمل ، فى شوارع القاهرة الكبرى . وتسير الجمال تحمل روايا الماء والقرب ، ثم طوائف الجند ، على رؤوسهم الطراطير السود ، والقلابق . وخلفهم أمير الحج ، ثم أرباب الأشاير ، من رجال الطرق الصوفية ، يحملون البيارق ، والخرق ، والطبول ، والزمور ، ومن خلفهم المحمل . والناس على جوانب الطريق ، أوسائرون خلفه ، يتبركون به .

وكان يحتفل بعودة المحمل أيضاً ، عندما يتيسر للحجاج ، وأميرهم ، أن يعود .

ومن الأيام التى كان يبتهج فيها أهل القاهرة ، ويحتفلون بها ، ويشاركهم فى ذلك أهل المدن الأخرى : يوم الرؤية . أى رؤية هلال رمضان . حيث كانوا يزينون بيوتهم بالأعلام ، ويضيئونها ، ليلا ، بالقناديل .

وكانت تقام ، فى القاهرة ، وفى غيرها من بلاد مصر ، فى بعض المناسبات ، مواكب تشبه المهرجانات ، التى تقام فى مدن أوربا المختلفة . مثل مهرجان الزهور ، والربيع ، والورد ، والقمح ، والتفاح ، وغيرها .

وكانت تقام فى أيام عامة ، معروفة ، وفى مناسبات يختارها الشعب ، ليظهر فيها ابتهاجه بما يحرك عاطفته . ويبرز شعوره ، نحو حادثة ، أو إنسان .

كان السيد عمر مكرم ، زعيم مصر . وكانت له مكانة تجعل أهل مصر كلها يرون فى أفراحه وأيامه ، ومواسمه الخاصة ، أفراحاً ومواسم للشعب كله . وفى يوم الإثنين السادس عشر من ربيع الأول سنة ١٢٢٤ (أغسطس ١٧٩٩) احتفل السيد عمر بختان ابن بنته . فأقام أهل القاهرة مهرجانهم الشعبى هذا . وسار فيه أرباب الحرف المختلفة ، يقودون عرباتهم وهى تمثل الحرفة ، أو العمل ، الذى تقوم به كل طائفة منهم . فيجىء أصحاب كل حرفة بعربة ، على هيئة مخصوصة يختارونها ويتسابقون فى زخرفتها وتزيينها بأنواع القصب ، والحرير الملون ، ويضعون على ظهرها أدوات صنعتهم ، أو تجارتهم . ومع هذه الأدوات ، الصانع . أو البائع ، كأنها حانوت متنقل . فتسير عربة ، مثلا ، عليها صانع حلوى ، بأوانيه ، وأكوابه ، وأدواته ، من الدقيق والسكر ، وغيره ، وهو يقوم بصناعته فوق العربة ، وهى تسير . ثم أخرى على ظهرها خياط يقص أثواباً ، ويخيطها . وأخرى عليها خباز ، بفرنه ، وعجينه . يصنع الخبز . وأخرى عليها بناء ، أو حداد ، بكوره ، ومطرقته ، وحديده ، الذى يطرقه ، ويطويه ، ويلينه . أو زيات ، أو عقاد يعقد الحرير . وكان الصيادون يصنعون عرباتهم على شكل قارب له شراع أو أكثر ، يسير على عجل ، وهكذا . وأمام كل عربة يسير أهل الحرفة التى تمثلها . ويخرج أهل القاهرة ليشاهدوا هذه المواكب الشعبية الجميلة ، ويروا فيها صورة مشرقة ، منسقة ، حسنة العرض ، من حياتهم العامة والخاصة . وكانوا يتسابقون ، من الصباح الباكر ، للجلوس فى الأماكن التى تمر بها هذه المواكب ، كما يفعلون الآن . ويدفعون ، فى الجلوس بها ، أجوراً غالية . ويلبس الناس ، من المتفرجين ، والسائرين فى المواكب ، أحسن ثيابهم ، ويظهرون فى أبهج زينتهم ، فقد كانوا يسمونه « يوم الزينة[1] » .

---

(١) بقيت هذه المواكب إلى وقت قريب . وقد رأيناها ، فى طفولتنا . فى مدينة قريبة من الإسكندرية ، تسير على هذه الصورة ، فى شوارعها .

وكانت هذه المواكب تمـــر بشوارع القاهرة ، وميادينها ، بين فرح الناس وابتهاجهم .

وفى يوم الخميس السابع من المحرم سنة ١٢٢٩ (٣٠ ديسمبر ١٨١٣) احتفل محمد على بقران ابنه اسماعيل ، بابنة عارف بك ، ابن خليل باشا ، وزفاف ابنته إلى محمد بك الدفتردار ، فأمر أرباب الحرف بإقامة هذا المهرجان . وقضوا أياما عدة فى تنظيمه وترتيبه ، وترتيب سيره . وكانت العربات التى اشتركت فيه ، ممثلة للحرف المختلفة ، إحدى وتسعون عربة . وقد اختار هذا اليوم ، ليشترك الأوربيون فى هذه الأفراح باشتراكهم فى عيد رأس السنة .

وبقيت هذه المواكب الشعبية ، من شروق الشمس إلى غروبها ، تشق القاهرة ، من الوسكى إلى باب الحديد ، إلى بولاق . وشاء الله ، أن ينزل مطر غزير فى ذلك اليوم ، والمواكب تسير فى وسط الدينة . وناهيك بمطر غزير ، فى شوارع القاهرة الضيقة ، المترية ، فاختل النظام ، وابتلت العربات ، وما زينت به ، وأطفىء ما كان موقدا فوقها من أفران ، وأكوار . وسكت المغنون والعازفون ، ونزلت الراقصات ، والمغنيات ، من فوق العربات ، ولقى الناس من ذلك عناءاً شديداً ، تكدر به سقوهم فى المهرجان وتلفت ثيابهم ، ووقع كثير منهم فى الماء والطين .

وهذه المهرجانات ، ليست لهواً ولعباً ، بل هى « معرض » متنقل ، يمثل الحياة الصناعية ، والإنتاجية فى البلاد . وهى منافسة فى العمل على تقدم هذه الحياة ، وازدهارها . وتذكير للناس بما فى وطنهم من صناعة ، حتى يعرفوها ، ويقبلوا عليها ، ويفكروا فيها وهى منافسة ، أيضاً ، فى الإخراج ، والتنسيق وإبراز الزينة ، وتذوق الجمال ، وعرضه على جماهير الناس ، وتعويدهم إدراكه ، وحبه ، لتهذيب حسهم . وهى مواسم للتجارة ، والانتقال ، والسفر ، وكلها مظاهر للنشاط المفيد ، المنتج .

وهى ، بعد ذلك ، مباهج عامة للشعب ، تمكن مابين أفراده من وشائج ، وتنمى مابين نفوسهم من روابط المحبة ، والتعاون ، والعمل . وتعودهم النظام .

وتدخل فى حياتهم الكادحة ، كثيرامن السرور ، والسعادة والبهجة .

ولكن أهل القاهرة ، لم يكونوا ، فى هذه الأيام التى ذكرها الشاعر ، ولا فى غيرها من هذه الأيام التى ذكرناها ، يكتفون بإظهار السرور ، والبهجة ، والفرح البرىء ، المقتصد .

بل كانوا يتجاوزن ذلك إلى نوع من الحرية والتطرف والشطط . لا يرعون فيه تقاليدهم الطيبة . ولا يلتزمون أوامردينهم ، وما مكارم أخلاقهم . ولاحدود آدابهم ، فى التحفظ ، والتجمل ، والبعد عما يسقط المروءة ، ويستحى منه كرام الناس .

وكان أكثر ما يكون ذلك ، فى أيام جبر الخليج ، أو وفاء النيل ، كما أشرنا إلى ذلك ، منذ قريب . وكما نرى فى صفحات غير قليلة من الجبرتى . ملأها سخطا ، ومرارة ، وألما . لما كان يفعل الناس بأنفسهم ، وأخلاقهم ، وآدابهم . وما كان فى حياة معاصريه ، من أهل القاهرة خاصة ، وغيرهم على العموم ، من الانحراف والتطرف ، الذين خرجا بهم عن الحد .

أخلاق الناس وآدابهم

فى صفحات غير قليلة ، وفى سنين متقاربة أو متباعدة . نرى مثل هذه الكلمات التى يصور فيها الجبرتى مظاهر الحياة الأخلاقية فى عصره : — « كانت أيام هذا الشهر ، من أسوإ ، ما رأى الناس . بحيث لا يخلو يوم من زعجات ورجفات وكرشات . فى غالب الجهات . لأجل امرأة ، أو أمرد[1] » .

أما تفصيل هذا الذى يجمله الجبرتى فى مثل هذه الكلمات ، فهو شىء كثير ، وعجيب حقا .

وكان أعجب ما يجترأ عليه من ذلك أهل عصره ، يقترفه جند الدولة ، وقوادها ، وأمراؤها أيضا . بل وبعض ولاتها كذلك .

يقول الجبرتى ، عند حديثه عن حروب محمد على فى الحجاز ، إن زوجة أحد المحاربين ، أسرت فى إحدى المواقع . فلما طلبها زوجها ممن وقعت فى يده . قال له : — سأوردها إليك غدا ، بعد أن تبيت عندى هذه الليلة .

ويقول إن هذا الجند كانت معه ، عند سفره للحجاز ، صناديق السكرات . وكان لا يسمع فى معسكراتهم أذان . ولا تقام فيه صلاة . وأن كثيرين من قتلى جند مصر فى هذه الحرب ، وجدوا غلفا ، غير مختتنين . ثم يروى عن بعض كبار هؤلاء الجند قوله « إن أكثر عساكرنا على غير الملة ، وفيهم من لا يتدين بدين . ولا ينتحل مذهبا » .

وفى رمضان ، من سنة ١٢٣٠ ، كان أكثر أتباع الدولة ، وكبار الجند ، مفطرين . يجهرون بذلك من غير احتشام ، ولا مبالاة . ويجلسون على الحوانيت ، والمصاطب ، يأكلون ، ويدخنون . ويأتى أحدهم ، وبيده « الشبك » فيدنى مجمرته من أنف مسلم صائم . وينفخ فيه دخانه ، على حين غفلة . ساخرا منه ،

---

(١) حديثه عن شهر صفر سنة ١٢١٩ . « ص ٣١٦ جزء ٣ »

هازئاً به . وحدث أن أدخل رجل من الجند امرأة فى مسجد الأشرفية ، وفعل بها الفاحشة فيه ، بعد صلاة الظهر ، فى رمضان ، من هذه السنة .

ويذكر الجبرتى قصة أخرى عن هؤلاء الناس من جند الدولة ، تتلخص فى أن واحدا منهم تعلق بغلام من أهل القاهرة . وصار يتبعه فى الطرقات ، حتى لقيه ليلة فى مكان قريب من جامع الناس . فأمسك به ، يريد أن يغتصبه ، فى الطريق ، فتودد إليه الغلام حتى دخل به درب حاب المعروف بدرب الحمام ، وكانت فيه بيوت خربة . ثم فجأه الغلام بموسى ، كان يخفيها ، فقطع بها عضوه . وتركه بين الحياة والموت . حتى جاء بعض رفقائه من الجند فحملوه . وكان ذلك فى رمضان .

وكانوا يمرون بشوارع القاهرة فى نهار رمضان . والقهاوى مقفلة . فيطلبون أصحابها ليفتحوها ، وليصنعوا لهم القهوة ليشربوها . فإذا أبى صاحبها ، أو اختفى منهم كسروها ، وعبثوا بما فيها من الآنية والأدوات . حتى يجىء لهم قهرا .

وكان يجتمع فى معسكراتهم الكثير من النساء المحترفات للبغاء . فينصبوا لهن الخيام . ويجىء بعد ذلك البائعون ، وفيهم بائعوا الحشيش . والغوازى والراقصون . وكثير من أهل الأهواء ، والفساق ، و «العيَّاق» من أولاد البلد . فينصرفون جميعاً إلى شرب المسكر ، وأكل الحشيش ، والاجتماع بالنساء ، والغلمان . ولعب القمار ، جهاراً ، فى نهار رمضان ولياليه .

ويختلط أهل البلد ، الفاسقون منهم ، بهؤلاء الجند ، يشاركونهم ذلك كله . وكان كبار الجند يفعلون ذلك ، أمام جندهم ، وأمام الناس . ويجهرون بذلك الإثم كله

يقول الجبرتى ، فى حوادث شهر رمضان سنة ١٢٢٤ ، إنه وصلت إلى القاهرة طائفة من جند الدلاتية[1] من ناحية الشام . وكانوا يصحبون معهم جماعة « من المخنثين المعروفين «بالخولات» . الذين يتكلمون بالكلام المؤنث . ومعهم «دفوف

(١) الدلاه ، أو الدلاتية ، جند من أكراد سوريا . ونجد وصفهم وأصلهم فى صفحة ٢٤١ من الجبرتى ، الجزء الرابع .

obeikandi.com

وطنابير » . ويقول عنهم ، فى موضع آخر ، من حوادث سنة ١٢٢٠ إنهم كانوا « يخطفون النساء والأولاد . بل يلوطون فى الرجال الاختيارية » أى كبار السن .

وفى شهر ذى الحجة من سنة ١٢١٧ اغتصب أربعة من الجند غلاما لحلاق ، فى خط بين السورين . فتصدى لهم هذا الحلاق ، فقتلوه . وذهبوا بالغلام إلى بيت لهم . وتكاثر الناس عليهم يريدون إخراج الغلام . وحضر كبير من الجند ليخرجه أيضا فضربوا رجاله بالرصاص حتى قتلوا منهم ثمانية . ولم يستطيعوا إخراج الغلام . أو أخذهم إلى الباشا . وفى اليوم التالى جاء الباشا بجنده إلى هذا البيت . فأخرجهم ، بعد معركة أخرى ، وقتلهم شنقاً . ولكنهم وجدوا فى بيتهم أكثر من ستين امرأة مقتولة . وفيهن من وجدوها وطفلها مذبوح معها ، فى حضنها .

ويقول الجبرتى إن شر هؤلاء الجند ، كان لا يقف عند حد ، وقد وقع بالناس ، من ذلك ، بلاء عظيم . حتى حضروا من أطراف القاهرة ، ومن مصر القديمة ، إلى الأزهر يشكون ويستغيثون . ويذكر الجبرتى أن جند الدلاة ذهبوا ، فى عهد ولاية أحمد باشا خورشيد سنة ١٢٢٠ ، إلى قليوب . فنهبوها ، وأخذوا نساءها وبناتها وصبيانها وباعوهم فيما بينهم . وحاربهم الفلاحون من أهلها حتى قتل منهم — من الفلاحين — أكثر من مئة .

ونستطيع أن ندرك الآن . ما كان يلقاه أهل القاهره ، خاصة ، من بلاء ، على يد هؤلاء الجند ، وما كانوا يشيعون فيها من فساد ، وإثم ، وشر . إذا عرفنا أن عددهم كان ، قبيل قدوم الحملة الفرنسية ، إثنى عشر ألفاً . وكان سكان القاهرة إذ ذاك ثلاثمائة ألف .

وكان بعض الحكام ، من المماليك ، يدفع الناس دفعاً إلى مقارفة هذه الرذائل . فهو يقول عند حديثه عن الأمير رضوان كتخدا الجلفى ، الذى مات سنة ١١٦٨ ، إن النساء تبرجن فى عهده ، وتظاهر الناس بالمعاصى حتى خرجوا عن الحد وكان يمنع أصحاب الشرطة من التعرض لهم فيما يفعلون « فكانت مصر ، فى تلك الأيام .

مراتع غزلان ، ومواطن حور وولدان ، كأنما أهلها خلصوا من الحساب ورفع عنهم التكليف والخطاب » .

أما أن بعض الولاة كان على هذا الحال ، فإنا نجد خبر ذلك فى حديثه عن مقتل على باشا الجزائرلى ، أو الطرابلسى . فقد تولى هذا الرجل ولاية طرابلس ثم خرج منها ، أو أخرج ، بالحرب . فلما ترك طرابلس أخذ معه غلامين جميلين من أبناء الأعيان، رهينة. وقدم إلى مصر فتعرف إلى مراد بك وكسب صداقته . وأنزله مراد فى أحد قصوره بالجيزة . ثم ذهب على باشا إلى الحج ، فى سنة ١٢٠٧ وهناك التقى ببعض الحجاج من أهل طرابلس ، وهم يكرهونه ، وكان قد أخذ الغلامين معه إلى الحج ، فعرفهما الطرابلسيون ، وأنكروا ذلك إنكاراً شديداً ، وكبر عليهم. فذهبوا إلى أمير الحج ، وأبلغوه ذلك . وطلبوا إليه أن يخلص الغلامين من هذا الفاسق . فأرسل معهم أمير الحج بعض رجاله ، إلى على باشا، على حين غفلة . فوجدوه نائماً، ومعه أحد الغلامين . فسبوه ولعنوه . وقصوا لحيته ، وكانت ضخمة. وضربوه بالسلاح حتى جرح جرحاً بالغاً . وأخذوا منه الغلامين . ثم عاد إلى مصر فأقام فيها .

وقد اختارت الدولة هذا الرجل ، وهو مغربى ، من الجزائر ، والياً على مصر ، بعد ذلك بعشر سنين . فقتل فى بلدة القرين ، بالشرقية ، ودفن بها ، بعد أن تولى حكم مصر فترة قصيرة . وكان هذا الرجل ، إذا دخل عليه العلماء مد رجليه فى وجوههم وتعمد تحقيرهم .

وكانت للجند ، وللدلاة والأتراك منهم خاصة، شناعات أخرى، وقبائح كثيرة، شقى منهم بسببها أهل القاهرة وغيرهم شقوة عظيمة . فمن قبائحهم أنهم كانوا يقتسمون مع أصحاب المتاجر والدكاكين أرباحهم ، يزعمون أنهم يدخلونهم فى حمايتهم فلا يعتدى عليهم أحد . فيضع الجندى منهم شارة على طائفة من المتاجر والدكاكين ثم يقاسم أصحابها أرباحهم ، لأن هذه الشارة حمايةلهم ، وكانوا يفعلون ذلك حتى على القهاوى ، وصالونات الحلاقة . كما كانوا يقفون على مداخل القاهرة ، فيشترون الفاكهة ، واللبن والجبن والحطب، وغيرها، من الفلاحين القادمين لبيعها.

فيشترونها منهم بأبخس الأثمان ، أو يأخذونها غصباً. ثم يبيعونها للناس فى داخل القاهرة بأغلى ثمن . وقد يأخذون منهم أموالا قبل أن يدخلوهم .

وكثيراً ما كانت تتأخر مرتبات الجنـد ومخصصاتهم . فـكانوا يأخذون بأيديهم ما يشاءون من أموال الناس وأقواتهم . يذكر الجبرتى من حوادث جمادى الأولى سنة ١٢١٦ ، أى بعد خروج الفرنسيين ، ودخول الجند العثمانى ، يذكر أن طوائف العسكر عربدت بأسواق القاهرة ، وخطفوا أمتعة الناس . وما يبيعه البـائعون من الشواء ، والفطـير ، والبطيخ ، والبلح . وسببوا ذلك بأن « علائفهم » تأخرت . وكان هذا الأمر كثير الحدوث فى أوقات مختلفة .

وكان بعض الجنود يجلس فى بعض الحوانيت ، ثم يقوم ويعود بعد ذلك فيدعى ضياع نقوده أو شىء منه . ولا يترك الحانوت حتى يأخذ من صاحبه شيئاً .

وقد يدخل الحانوت فيختلس ما يستطيع اختلاسه . وبعضهم كان يشتغل باستبدال النقود الزائفة ، بالغش ، أو بالقهر والقوة وكانوا يعترضون النساء فى الأسواق والشوارع من غير حياء .

وقد فشى فى وقت من الأوقات ، أمر حماية الجند لأصحاب المتاجر والحوانيت ، كما أشرنا منذ قليل ، واستطاعوا ، بفضل هذه الحماية ، أن يمتنعوا عن دفع الضرائب. وتأثرت بذلك أموال الدولة ، حتى عجز الوالى عن صرف مرتبات الحرمين والأوقاف والعلماء والأشراف والأرامل والأيتام ولم يجد الوالى على باشا بداً من التدخل فى سنة ١١٠٢ ، لأبطال هـذه الحماية . ولـكنها كانت تعود أشنع وأفحش مما كانت .

وكان بعض الجند يبيع أصناف المأكولات ، والخضار . أو يفرض نفسه رئيساً على حرفة ، فيأخذ من طائفتها ما يشاء من الضرائب ، وعليهم أن يزيدوها فى ثمن البيع

وكان بعضهم يشترى الخراف ويذبحها ويبيع لحومها بالثمن الذى يفرضه ويزيد.

فيه مايشاء . وينقص فى الوزن ، ولايستطيع أحد أن يعترض عليه أو يراجعه .

وفى سنة من حكم محمد على، قل وجود الحطب الرومى فى القاهرة حتى ندر، وغلا ثمنه . فكان الجند القادمون من الصعيد يحملونه معهم إليها فيبيعونه لأهلها بأغلى ثمن .

وكانت لهذه الطوائف من الجند ، ويسميها الجبرتى دائماً « العسكر » ، عوائد يتفننون فيها لابتزال أموال الناس ، وخاصة فى الريف ، منها « الوجبة » .

والوجبة هى خروف ، أو فطيرة ، وقدتكون مالا ، يفرضه الملتزم على الفلاحين ويتقاضاه منهم عند حضوره لجمع المال ، أو استيفاء الضرائب .

ومنها «حق الطريق» وهو مال يفرضونه على الفلاحين ، أجراً لهم على الانتقال إلى بلادهم وقراهم لأى أمر من الأمور ولوكان انتقالهم لجمع المال ، أولأخذ الضريبة . وهم يقدرون حق الطريق هذا كما يحلولهم ، وقد يأخذونه أكثر من مرة .

ومن عوائدهم « كراء الأسنان » . وكانوا يسمونه « ديش كراسى[1] » وكراء الأسنان معناه أن أتباع الأمير ، أو الحاكم ، إذا كانوا معه فى مكان ، وجيء لهم بالطعام ، بعد أن يطعم أميرهم ، لايتقدمون إلى طعامهم حتى يعطيهم صاحب المكان مالاً قبل أن يأكلوا .

يقول الجبرتى إن الشيخ عبد الرحمن السلمونى مباشر وقف السلطان الغورى ، أقام حفلا لزواج بنته ودعا بعض الأمراء وكبار الجند ، فلما أكلوا ، ومد السماط لأتباعهم . أبوا أن يأكلوا حتى يأخذ كل منهم عوائده من كراء الأسنان .

فلم يسع الشيخ السلمونى إلا أن أعطا كل واحد منهم ريالا ، وكانوا خمسة وأربعين

وكانت لهم عادة أخرى اسمها « الجمعية » .

فقد كان من عادة المختصين بخدمة الوالى ، ونائبه أن يخرجوا فى كل يوم من

---

(١) ديش بالتركية أسنان . وكراسى . أى كراء ، أو أجر .

أيام الجمع ، وقد لبسوا أحسن ثيابهم ، فينتشرون فى أنحاء القاهرة يطوفون على بيوت الأعيان والسراة ، وكبار القوم . ليطلبوا منهم « البقشيش » . ويسمون ذلك « الجمعية » .

وكان من عادة الناس أن يجلسوا فى مكان ظاهر من بيوتهم فى ذلك اليوم . وعند ذلك يمرون بهم ثم يقفون ، وفى أيديهم العصى المفضضة ، فيعطيهم صاحب البيت مايرجون . وقد يمر غيرهم ، وغيرهم ، فيعطيهم . لأنهم كانوا يرون ذلك فرضا واجبا . ويقول الجبرتى إن هذه « الجمعية » ثقلت على الناس حتى كان بعضهم يظل داخل منزله فى ذلك اليوم ، أو يتركه . بسببها . فأبطل محمد على هذه العادة . وكف خاصته ورجاله عنها .

وكانوا يفعلون بأهل الريف الأفاعيل . يذهبون إليهم بأوراق مكتوبة باللغة التركية ، فيوهمونهم أنها تتضمن تخفيفاً عنهم فى الضرائب ، أو المال . ويطلبون لذلك « حق الطريق » مالا عظيما ويأخذونه . ثم لا يكفيهم ذلك . بل يسلبونهم مواشيهم . وقد يحبسون كبارهم وشيوخهم حتى يدفعوا فوق ذلك مايطلبون . ثم يظهر آخر الامر أن هذه الأوراق من مخترعاتهم وصنع أيديهم . وكانت القاهرة كثيراً ما تمتلىء بهؤلاء الفلاحين الذين هاجروا من قراهم وبلادهم فرارا من ظلم هؤلاء الجند .

وكانوا يسلبون من ينفردون به من الناس ، فى أطراف القاهرة ، ويقتلونه . ويستأجرون الحمير من أصحابها ليركبوها إلى خارج المدينة ، ثم يقتلون المكارى ويذهبون بحماره إلى السوق فيبيعوه .

ويقول الجبرتى إن هذه القبائح والشناعات زادت من « العسكر » العثمانى بعد دخولهم القاهرة وخروج الفرنسيين « حتى تمنى أكثر الناس ، وخصوصا الفلاحين ، أحكام الفرنساوية » .

وكانت فرق العسكر المختلفة يقاتل بعضها بعضاً ، فى داخل القاهرة . ويقع منهم القتيل والجريح . ويجد الناس وأصحاب المتاجر من ذلك بلاء شديدا وشقاء بالغا . وكثيرا ما كانوا يقتلون غريمهم ، ويلقون جثته فى طرقات القاهرة زمنا

قد يصل إلى ثلاثة أيام ، تظل فيها تطؤها أقدام الناس ولا تدفن .

وفى وصف الجبرتى لجبر الخليج من سنة ١٢١٩ دلائل محزنة على ما بلغه ظلم الجند وعسفهم واستهتارهم بجميع القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية . وتلخيص هذا الوصف أن الوالى — أحمد باشا خورشيد — نزل لكسر البحر ، ومعه القاضى ومحمد على وكبار العسكر . ولم يحضره أحد من المصريين فلما جرى الماء فى الخليج ركبوا فيه زوارقهم تسير بهم على الماء ، وهم يطلقون الرصاص من بنادقهم ، فقتل من رصاصهم عدد من الناس ، رجالا ونساء ، ثم نزل كبار العسكر من زوارقهم فدخلوا بيوتهم على الخليج ، ومعهم نساء ، من سيئات السيرة .

وجاء جماعة من المصريين ليأخذوا قتيلا لهم ليدفنوه . فمنعهم كبار الجند ، الذين قتلوه ، من أخذه ، حتى يدفعوا لهم ثلاثة آلاف درهم فضة . ولم يستطع أهل القتيل أخذ جثته حتى دفعوا لقاتليه ألفاً وخمسمائة درهم . وكذلك فعلوا بمن جاء بعدهم ليوارى جثث قتلاه . وكانت امرأة تطل من نافذة لترى ذلك ، فصوّب كبير من العسكر رصاصة إلى رأسها فصرعتها .

وفى شعبان من نفس السنة تهدم حمام على من فيه ، ومات تحت أنقاضه ثلاث عشرة من النساء والأطفال والبنات . وخرجت الباقيات عرايا ينفض التراب عن جسومهن . فجاء كبار العسكر ليمنعوا أصحاب القتلى من نقل قتلاهم ، حتى يدفعوا دراهم ، وليأخذا ثياب النساء من تحت الأنقاض

وقد بلغت أخلاق السادة من الناس ، حتى القضاة ، حدا جعل شاعرا يقول ، فى قاضى القضاة ، هذا الشعر : —

فى مصر ، من القضاة ، قاضٍ ، وله فى أكل مواريث اليتامى ، وله
إن رمت عدالة فقل ، مجتهداً من عدّله دُرهمـــا ، عـــدله

ومن الطبيعى أن يكون لذلك كله أثره فى حياة الناس . ورخائهم وأمنهم وخاصة إذا لم يف ماء النيل ، أو حل بالناس وباء . فنحن عند ذلك نجد هذه الصورة التى رسمها الجبرتى عن حياة أهل القاهرة ، فى شعبان سنة ١٢٢٥

«ففى هذا الشهر خرج المشايخ والناس إلى جامع عمرو ، وأرسلوا فجاءوا بالأطفال من مصر وبولاق، وخطبوا وصلوا ليرفع الله البلاء عن الناس، وليزيد ماء النيل . ولم يجد المجتمعون مايأكلونه ، وأضر بهم الجوع » .

وهذه الصورة عن حياة المصريين كلهم فى سنة ١١٩٨ [١٧٨٣ ، ١٧٨٤] م

فهو يقول فى ختامها إنها « انقضت ، كالتى قبلها ، فى الشدة والغلاء ، وقصور النيل : والفتن المستمرة ، وتواتر المظالم والمصادرات ، وانتشار الحباة فى كل النواحى جمع المال حتى هلك الفلاحون وضاق ذرعهم واشتد كربهم ورحلوا عن بلادهم أما مساتير الناس ، فقد باعوا دورهم ومتاعهم ومواشيهم . ومن ظن عنده شىء من المال أخذ وحبس وطولب بأضعاف مايقدر عليه . وتوالى طلب السلفة من التجار عن الضرائب المقبلة . فزادوها على أثمان بضائعهم ، ثم مدوا أيديهم إلى المواريث ، فإذا مات أحد أخذوا ماله وكل ماعنده سواء ترك وارثاً أم لم يترك ، وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها شرار الناس فى نظير مال يدفعونه فى كل شهر فلا يعارضهم معارض فيما يفعلون .

وحل بالناس مالا يوصف من أنواع البلاء . وفسدت النيات ، وتغيرت القلوب . ونفرت الطباع . وكثر الحسد والحقد فى الناس بعضهم لبعض . فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى بها إلى الظالم . حتى خربت الأقاليم، وانقطعت الطرق ، وعربدت أولاد الحرام ، وفقد الأمن ، ومنعت السبل ، إلا بالحراسة والمجازفة . وترك الفلاحون بلادهم من الفقر والظلم ، وانتشروا فى القاهرة ، بنسائهم وأولادهم ، يصيحون من الجوع ، ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلا يجد الكناس شيئاً يكنسه . واشتد الحال حتى أكل الناس الميت من الخيل والجمال والحمير . فإذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه ، ومنهم من يأكله نيئاً من شدة الجوع . ومات كثير من الفقراء من الجوع » .

وكذلك نجد هذه الصورة عن حياتهم فى سنة ١٢٠٣ .

وجهوا إلى الناس فى الأرياف قساة المحصلين لأخذ الأموال قبل أوانها .

فكان المحصلون يدهمون الفلاحين فى بيوتهم ، ومعهم العدد الكثير من العسكر ببنادقهم وأسلحتهم . فيشاغلونهم ، ويلاطفونهم بالإكرام ، فلا يزيدهم ذلك إلا قوة وغلظة . ويطلب منهم الفلاحون تأخير المال فيسمعونهم فحش القول . والشطط فى فرض « حق الطريق » . وقد يدخلون الدار وليس فيها سوى النساء . فيقع منهم الشر الكثير . حتى تفر النساء من الخيطان والنوافذ .

وكانوا يوقفون كل سفينة تسير فى النيل . فيخرجون ما فيها . وقد ينهبونه كله ، أو يفرضون على أصحابها ما يشاؤون من المال . وكان زعيمهم فى ذلك ، مصطفى كاشف ، يجلس فى قلعة طرا فيجيئه أصحاب هذه السفن ، وأصحاب البضائع التى تحملها فيدفعون له ما يشاء من مال . حتى لا ينهب رجاله سفنهم وأموالهم .

ويقول الجبرتى إن أنباء هذه الاستباحة للبلاد ، ذاعت فى الأقطار التى يفد منها الجند والمماليك . فكثر فى ذلك الوقت قدومهم إلى مصر . ونشط تجار الرقيق لتسهيل رغبتهم فى الحضور للقاهرة . والالتحاق بخدمة رجال الدولة فيها ، ليشاركوهم فى نهب هذا المال المستباح .

ويقول أيضاً أن القرى كانت ، فى بعض السنين ، تكاد تقفر من أهلها . وأن بعض القرى كان أهلها يدفعون عن الفدان الواحد ، من المصاريف ، والأموال والمغارم ، أربعة آلاف نصف . مع أن الخراج المفروض عليها لا يزيد عن مئة وعشرين . ونجد فى فصول أخرى من الكتاب ، وفيما سجلناه من عصر محمد على خاصة ، مظاهر أخرى ، مما كان يقع بالناس من ظلم وعسف وقسوة .

ومن طريف ما سجله الجبرتى ، فى حوادث شعبان ١٢١٦ ، أنه بينما كان جند الدولة ، وكبارها يفعلون ذلك بأهل مصر ، أرسل السلطان « فرمانا » شريفا إلى عرب البحيرة ، يثبتهم فيه على بلادهم ، ويقرر لهم فيها مزايا ، ثم يشترط عليهم فى مقابل ذلك هذه الشروط : « أن يوفوا بعدم التعدى وإيصال الرزية والمضرة ولو بمقدار ذرة ، إلى الرعايا - وديعة خالق البرايا ، فإن وقع منهم أقل ظلم للعباد ، أخرجوا من ديارهم . بعد أن تسلب أموالهم . ويتلاشى حالهم حتى يصيروا لاعبين

ولا أثر . ولا مخبر ولا خبر . ولا معالم ولا معاهد . ولا مشارع ولا موارد . تأخذهم صاعقة العذاب الهون . ويحل بهم من البلاء ما لا يطيقون ..! »

وقد سجل الجبرتى هذا الفرمان الشريف بنصه ، رغم طوله . ونقلنا منه هذه السطور بنصها أيضاً .

وليس من الأمانة ، ولا مما يتفق مع واقع التاريخ ، أن نقول إن مقارفة هذه الرذائل ، أو بعضها ، كانت مقصورة على الجند والقواد والأمراء ، أو الولاة .

فالقول بذلك مما يجافى الحق . ويجانب ما سجله الجبرتى عن أخلاق الناس وآدابهم فى ذلك الزمن .

وكذلك لم يكن هذا المستوى من الأخلاق والفضائل ، قاصرا على أهل القاهرة وحدهم . بل نجد أشياء من ذلك فى غيرها من المدن .

فقد انتقلت عدوى هذا الظلم والاستهتار من العثمانيين ، والعسكر ، إلى العرب . ففى رمضان من سنة ١٢٠٢ ، وكان مراد وإبراهيم يتنازعان إسماعيل بك الحكم ، خرج العرب على قافلة التجار والحجاج القادمة من السويس . فنهبوا ما فيها من المال ، وكان شيئاً كثيراً ، منه ستة آلاف جمل محملة بالبضائع . وسلبوا متاع الحجاج وملابسهم . وأخذوا نساءهم فعرّوهن عن ثيابهن ، ثم باعوهن لأصحابهم هرايا .

أما ما نجده عند غير الجند ، والقواد ، والأمراء ، والولاة ، والأعراب ، من مثل ذلك ، أو ما هو منه قريب ، فنكتفى فيه ، إلى جانب ما ذكرنا ، بذكر حادث رواه الجبرتى فى حوادث سنة ١١٩١ وسماه « حادثة الشيخ صادومة » .

الشيخ صادومة

كان الشيخ أحمد صادومة رجلا شيخا . له شيبة وهيبة ، وأصله من مدينة سمنود . وكانت له شهرة عظيمة فى الروحانيات ، وتحريك الجمادات ، ومخاطبة الجن ، وإظهارهم لمن يريد أن يراهم ، وللناس فى شأنه اختلاف . وكان الشيخ حسن الكفراوى . العالم الكبير صاحب المؤلفات ، ومفتى الشافعية ، وشيخ مسجد أبو الذهب ، صديقاً حميما للشيخ صادومة ، كبير الاعتقاد فيه . دائم الذكر له والثناء

عليه ، عند الأمراء ، وخاصة عند صديقه محمد بك أبو الذهب . حتى قربه هذا الأمير وأحبه . واتفق أن اختلى أبو الذهب بجظية له ، فرأى على سوأتها كتابة . فسألها عن ذلك ، وأخافها بالقتل ، فأخبرته أن امرأة ذهبت بها إلى الشيخ صادومة ، حيث كتب لها ذلك ، ليحبها سيدها . فأرسل أبو الذهب جنده إلى الشيخ حيث جاءوا به ، فقتله ، وألقاه فى النيل .

وأخرج ما فى بيته من أشياء ، فكانت منها تماثيل . وفيها تمثال من قطيفة ، على هيئة عضو الرجل . فكان أبو الذهب يضع هذه التماثيل إلى جانبه إذا جلس إلى الناس ويأخذ منها هذا التمثال من القطيفة ، فيرفعه إلى أعين الجالسين ؛ وهم يتعجبون ، ويضحكون . وهو يقول لهم : انظروا أفاعيل المشايخ ..! ثم عزل الشيخ الكفراوى عن إفتاء الشافعية وعن مشيخة مسجده ، بسبب صداقته الحميمة للشيخ صادومة وثنائه عليه .

شيخ مدينة بنها

وأما فى غير القاهرة ، فنذكر قصة هذا الرجل ، الذى ظهر فى مدينة بنها سنة ١٢٢٢ .

كان اسمه الشيخ سليمان ، بدأ أمره بأن أقام زمنا فى عشة بناها فى المزارع . فاعتقد فيه الناس الصلاح والولاية ، والجذب . واجتمع إليه كثير من أهل القرى ، وكان أكثرهم من الأحداث . ونصبوا له سرادقا كبيراً ، كانوا يملأونه بالنذور ، والهدايا ، يرسلون بها إليه . وصار هو يكتب إلى الناس فى البلاد المجاورة ، يطلب منهم القمح والدقيق . فيبادرون بإرسال ما يطلب . ثم انتقل الشيخ بعد ذلك بدعوته إلى ناحية أخرى . وصبغها بصبغة عامة . فأطلق رجاله يقولون للناس إن المماليك ، والحكام . قوم ظالمون . فلا تعطوهم شيئاً ، ولا تطيعوا لهم أمراً . ولا تدفعوا لهم ضرائب . ومن جاءكم من رجالهم فاقتلوه . فإنه لا ظلم اليوم . وسمع الناس دعوة الشيخ وأطاعوها . فكلما جاءهم الجند ، أو رجال الدولة لمال ، أو لشىء . زجروهم ، وطردوهم . وإن عاندوا قتلوهم . حتى ثقل أمره على حكام ذلك الإقليم .

ولكن الشيخ ، انحرف واشتط . عندما رأى نجاح دعوته . وقوة أمره . فظهر منه ما كان خافياً . فقد بدأ يتطلع إلى الأحداث من الغلمان . ويستجلبهم ، ويطلب قدومهم إليه . حتى اجتمع لديه منهم مئة وستون . أسكنهم سرادقاته . وكان كثير منهم أبناء مشايخ البلاد وأعيانها . وكان إذا علم أن فى بلدٍ غلاماً وسيما ، أرسل يطلبه ، فيحضروه إليه فى الحال . ولو كان أبوه عظيم البلدة . حتى صاروا يجيئون إليه من غير طلب . واجتمع إليه ، عداهؤلاء المئة والستون من الغلمان ، كثيرون من ذوى اللحا . ووضع هذا الشيخ عقوداً من الخرز الملون ، فى أعناق الغلمان ، وأقراطاً فى آذانهم . كما يفعل الناس بالفتيات والبنات .

وقامت فى ذلك الوقت مشكلة بين شيخ من شيوخ الأزهر ، اسمه الشيخ عبد الله زغزوق البنهاوى ، وبين حكام القليوبية بسبب نزاع على أرض يدعيها الشيخ . وظن الشيخ ، كما يقول الجبرتى ، أنه سينال مايريد « بقال المصنف ، إكراما لعلمه . » ولكنه لم ينل ما يدعيه . وشكا أمره إلى محمد على ، وإلى نائبه ، ولكن العلماء الذين طلب إليهم محمد على أن يبحثوا شكواه ، لم يجدوه على حق . فقدم هذا الشيخ إلى بنها ، واتصل بالشيخ أحمد . وزين اليه أن يهبط القاهرة ، وأن يلتقى بعلمائها وأهلها . فهم لا بد أن ينصروه . وقد بلغتهم دعوته ، وسمعوا بكراماته ، وله فى نفوسهم منزلة عظيمة . ورأى الشيخ أن يفعل ما أشار به صاحبه . فجمع رجاله ، وغلمانه ، ومعهم طبول ، وكاسات . وسار حيث دخل القاهرة على حين غفلة . وكان رجاله يحملون فى أيديهم « الفرقلاّت » يفرقعون بها وهم يسيرون فى شوارع القاهرة ، ولهم صياح وضجيج . ومن خلفهم الغلمان . وشيخهم فى وسطهم . وسار هذا الجمع حتى دخل المسجد الحسينى . ودخل بعض منهم منزل السيد عمر مكرم . وهو يفرقع « بالفرقلة » . وبقى حالهم على ذلك إلى العصر . وكان رجل من كبار الجند ، اسمه إسماعيل كاشف أبومناخير ، يعرف الشيخ ، ويعتقد فى ولايته . فذهب به ومن معه إلى بيته ، حيث أطعمهم واستضافهم . وفى الصباح ركب الشيخ بغلة الكاشف وذهب بطائفته إلى ضريح الإمام الشافعى حيث جلسوا يذكرون .

وعند ذلك وصل خبره إلى نائب محمد على ، فأرسل إلى السيد عمر مكرم يرجوه أن يرسل إليه الشيخ ، ليتبرك به . وعرف السيد عمر أن الكتخدا يضمر للشيخ السوء ، فأرسل إليه من يحذره . وقدم الكتخدا وكبير من رجاله إلى بيت السيد عمر ، فقال لهما إنه أرسل إلى الشيخ من يحضره فلم يلحق به . وأراد كبير من الجند أن يمسك بالشيخ ورجاله وغلمانه ، فى مسجد الامام الشافعى ، قبل أن يخرج منه . ولكنه خشى مغبّة اقتحامة .

وانتهى الأمر بالشيخ إلى الهرب . وتفرق عنه الملتحون من رجاله . أما الغلمان فيقول الجبرتى إن الجند قبضوا عليهم ، وأخذوهم إلى دورهم . ولم ينج منهم إلا من كان هرب . ولما وصل خبر هذا الذى جرى على الشيخ وجماعته ، إلى الشيخ زقزوق ، تبرأ منه . وذهب إلى نائب محمد على تائباً .

وكانت نهاية الشيخ أحمد البنهاوى أن جاء به نائب محمدعلى ، وأمر طائفة من الجند فأخذوه ، وأربعة بقوا معه من أتباعه ، وذهبوا بهم إلى بولاق ، فقتلوا الشيخ ، وألقوه فى النيل . وألقوا رفقاءه الأربعة فيه أيضاً . ولكن واحداً منهم ، استطاع أن يسبح إلى البر وينجو .

وقد حفظ لنا الجبرتى كثيراً من هذه الصور ، ومثلها ، وسجل بها حياة الناس ، كما هى ، وأخلاقهم ، وآدابهم . وكان ، وهو يدون ذلك ، يسجل ، إلى جانبه سخطه وغضبه ، وكان يبلغ به السخط ، مما يرى ويسمع ، حدا كبيراً . حتى قال مرة إن الإسلام نفسه ، منتفٍ عن كثير من أهل ذلك العصر . والإسلام ، عنده ، حين يقول ذلك ، قرين الفضائل والآداب والخلق الكريم . ولا سبب غيره لوجودها فى نفوس الناس .

الموالد

ويسوقنا الحديث عن الشيخ أحمد البنهاوى ، وقد كان يدعى التصوف والولاية ، إلى ذكر ما سجله الجبرتى ، مما كان يفعله أمثال هذا الشيخ ، فى الموالد .

كان القاهريون، وغيرهم، يحتفلون، كما يحتفلون الآن، بمولد الحسين، والسيدة زينب، والإمام الشافعى، والسيدة نفيسه. وكثير غيرهم من الأولياء والصالحين. كما يحتفلون جميعاً بمولد السيد البدوى فى طنطا، والسيد إبراهيم الدسوقى فى دسوق.

ولنتخذ مولد الحسين مثلا لما كان يجرى فى غيره من الموالد.

فالجبرتى يتحدث فى الجزء الرابع من كتابه عن نشأة الاحتفال بهذا المولد. فيقول إن هذا المولد ابتدعه مباشر لوقف المسجد الحسينى كان يسمى السيد بدوى ابن فتيح. أصابه مرض. فنذر: إن شفاه الله، أن يقيم هذا المولد. وكان المولد، أول الأمر، هو إضاءة المسجد، وقبته، بالقناديل، والشموع. وترتيب فقهاء يقرءون القرآن نهاراً، ويتدارسونه. وآخرون يقرأون، ليلا، دلائل الخيرات. ثم تغير الحال، وانضم إلى الفقهاء كثير من الجهلة، وأهل البدعة. فمنهم من يقيم حلقات الذكر، ويردد اسم الله، محرفاً. وينشد له المنشدون القصائد والموّالات. ومنهم من يقول أبياتاً من بردة البوصيرى، فى مدح النبى عليه السلام، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة الصلاة على النبى. ومنهم جماعة، من المغاربة، يجلسون صفين متقابلين، وينطقون، بلغتهم، كلاما معوجاً بنغم خاص، وطريقة جروا عليها. وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها، على قدر النغم، ضرباً شديداً. مع ارتفاع أصواتهم.

وتقف جماعة أخرى مقابلة لضاربى الدفوف واضعين أكتافهم فى أكتاف بعض، لا يخرج واحد عن الآخر، يتلوّون وينتصبون. ويرتفعون وينخفضون. ويضربون الأرض بأرجلهم. كل ذلك مع الحركة العنيفة، والشدة الزائدة، بحيث لا يستطيع ذلك إلا كل من عرف بالأيد والقوة. وهذه الإيقاعات، والحركات، تجرى على نمط الضرب بالدفوف. فيقع بالمسجد من هذا كله، ضجيج كبير، ودوى عظيم. وإلى جانب هؤلاء كثير من الفقراء، والمنشدين، كل له طريقته، ونشيده. ثم يقول: — « هذا مع من ينضم إلى ذلك من جمع العوام، وتحلّقهم بالمسجد، للحديث والهذيان. وكثرة اللغط والحكايات، والأضاحيك. والتلفت إلى حسان الغلمان، الذين يحضرون للتفرج. والسعى خلفهم، والافتتان بهم.

ورمى قشور اللب ، والمكسرات ، والمأكولات فى المسجد . وطواف البـاعة بالمأكولات على الناس فيه ، وسقاة الماء . فيصير المسجد ، بما اجتمع فيه من هذه القاذورات ، والعفوش ، ملتحقاً بالأسواق المتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

وكان يجتمع إلى هذه الموالد ، العامة ، والسوقة ، وأهل الحرف السافلة ، ومن لا يجد ما يأكله . يحملون القناديل ، والشموع ، والطبول ، والزمور . وينطقون بكلام محرف يظنون أنه ذكر ، وتوسلات يثابون عليها . فإذا اعترضهم معترض . أوتصدى لهم لائم ، رموه بالاعتزال والخروج والزندقة . ثم يمضون ليلتهم ساهرين فإذا أصبح الصبح ، عجز كل عن أداء عمله .

ويقول الجبرتى إن هذا المولد ، استمر الاحتفال به عشر سنين ، وناذره ، السيد بدوى فتيح ، لم يزدد إلا مرضا ومقتا ثم بطلت إقامته عندما دخل الفرنسيون القاهرة . ولـكنهم ، بعد ذلك ، أمروا بإقامته . « لأن ذلك يوافق هوى العامة . لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة . وتلك هى طبيعة الفرنسـاوية » .

ومن الذين ترجم لهم الجبرتى من أصحاب الأضرحة والموالد ، الشيخ على البكرى . ويعرفه سكان القاهرة ، كما يعرفون مولده ومسجده بالقرب من جامع الرويمى . وكان السيد على البكرى ، كما يصفه الجبرتى ، رجلا أبله ، يمشى عريانا فى الطريق ، مكشوف الرأس والسوءتين ، غالبا ، وكان له أخ صاحب دهاء وحيلة . وكان دائم المنازعة والخصومة لأخيه الشيخ . ثم بدا له فيه أمر ، فقد وجد الناس ، على عادة أهل مصر ، يعتقدون فى أخيه الولاية والـكرامة ، ويلتمسون منه البركة . فحجر عليه ، ومنعه من مغادرة البيت ، وألبسه ثيابا . وأظهر للناس أنه قد أذن للشيخ بلبس الثياب لأنه تولى قطبا . وتكاثر الناس ، وخاصة النساء ، يسعون إلى بيت الشيخ والتبرك به ، والإصغاء إلى ألفاظه وتخليطاته ، وتأويلها بما يلائم رغبة نفوسهم . وتكاثرت مع هؤلاء المريدين والزائرين ، الهدايا والنذور والأموال وكان أخوه ، صاحب الدهاء والحيلة ، يذيع فى الناس من كرامات الشيخ ومعرفته أسرار النفوس ما يشاء .

وامتلأ بيت الشيخ وأخيه بالأموال والخيرات. وزاد جسم الشيخ ، كما يقول الجبرتى، ضخامة ، من كثرة الأكل والفراغ والراحة، حتى صار «مثل البوّ العظيم» ! وظل هذا حال الأخوين حتى مات الشيخ سنة ١٢٠٧ فأقام له أخوه ضريحا ومقاما، وزاد فى ذكر كراماته وفيوضاته ، وخصص له المقرئين والمنشدين والمداحين ، يشيدون بولايته وقطبانيته ، ويذكرون أوصافه فى قصائدهم، وهم « يتواجدون ويتصارخون، ويمرّغون وجوههم على شباكه وأعتابه ؛ ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ، ويضعونه فى جيوبهم وعبهم » وهذا الشيخ البكرى هو الذى قال فيه البدرى الحجازى قصيدته التى ذكرناها من قبل ، والتى يقول فيها : —

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كلّ ذى جنة ، لدى الناس ، قطبا

ولم يكن الشيخ من أسرة البكرى . بل جاءته هذه النسبة لأنه كان يسكن فى سويقة البكرى .

الشيخة أمونة

وعند ما كان الشيخ على البكرى يمشى فى الطرقات عرياناً ، قبل أن يحجبه أخوه ، تعلقت به امرأة تسمى الشيخة أمونة . وصارت تسير خلفه أينما سار ، وهى تلبس إزارا . وأخذت هى الأخرى تخلط فى ألفاظها عندما تدخل معه إلى بيوت الناس . واعتقد الناس أيضا فى ولاية الشيخة أمونه، وأسرعوا إلى مهاداتها بالمال والملابس ، وقالوا إن الشيخ لحظها وجذبها فصارت من الأولياء ، وزاد ذلك من تطرفها ، فنزعت ثياب النساء ولبست ملابس الرجال . وصارت ظلا للشيخ . لا تفارقه أبدا وكلما سارا تبعهما الأطفال والعوام ، ومنهم من اقتدى بهما فنزع ثيابه «وتخنجل» فى مشيته وكل من فعل ذلك قال الناس إن بركة الشيخ مسّته فجذبته. وزاد الحال ، وفشى أمر الشيخ والشيخة حتى كان يسير خلفهما جمع كبير من أوباش الناس والصغار . وصاروا ، عندما يمرون بالأسواق ، يخطفون ما يحلوا لهم من شىء . ولهم فى سيرهم ضجة عظيمة . فإذا جلس الشيخ فى مكان، إجتمع حوله خلق عظيم ، ووقفت أمونة على درج دكان ، أو مرتفع من الأرض ، تتكلم بفاحش القول ، بالعربى ، والتركى . والناس يصغون ، يقبلون يدها ويتبركون بها .

ومر هذا الموكب أمام بيت رجل من المماليك ، يسمى جعفر كاشف . فغاظه وهاله ، فقبض على الشيخ والشيخة ومن حولها من المجاذيب . أما الشيخ فقد أدخله بيته فأطعمه، ونحّى الناس عنه ثم أطلق سراحه . وأما المجاذيب فقد حبسهم وضربهم ضربا شديدا، حتى تابوا ، واستغاثوا ؛ ولبسوا ثيابهم ، وعادت لهم عقولهم. وأخرج الشيخة من محبسها إلى المارستان ، فبقيت فيه زمنا مع المجانين . ويقول الجبرتى إنها خرجت بعد ذلك بسنين « فصارت شيخة على انفرادها . ويعتقدها الناس والنساء . وجمعت عليها الجميات والموالد » .

وهذا الذى كتبه الجبرتى؛ عن إقامة الموالد ، وما كان يقع فيها من المنكرات. هو من المواطن القليلة التى خرج فيها عن مجرد السرد ؛ والتدوين ، وتسجيل الحوادث ، إلى إبداء الرأى والتعليق بالنقد أو الاستحسان . وهو ، فى نقده هذا ، يدل على أنه عالم لا يخضع لهوى العامة ؛ ولا يسكت على بدعة .

ثم يسوقنا الحديث عن مدعى التصوف والولاية ، مرة أخرى ؛ إلى ذكر هذه القصة الطريفة عن عنز الشيخ عبد اللطيف . وفيها نجد صورة من مستوى أفهام الناس فى ذلك العصر ، وأخلاق بعض المنتسبين إلى الدين . كما نجد صورة من صور الحاكم الجرىء ، الحازم . وهذه هى القصة :

التيس والعنز

يذكر الجبرتى من حوادث سنة ١١٧٣ أن خدم مسجد السيدة نفيسة بالقاهرة ، اختلفوا فيما بينهم فى أمر العنز .

ذلك أن هؤلاء الخدم ، وكبيرهم الشيخ عبد اللطيف ، أظهروا للناس عنزاً صغيرة ، وألفوا حولها قصة ، خلاصتها أن جماعة من المسلمين الذين يحاربون فى بلاد الكفار ، وقعوا أسرى فى أيديهم ، فنذروا لله إن أخرجهم من الأسر، أن يذبحوا عنزا يوزعون لحمها صدقة. بعد أن يجتمعوا حولها ليلة يذكرون الله ويدعون ويتوسلون. وجاؤوا بهذه العنز الصغيرة ليبيتوا ليلتهم حولها يذكرون ، وتوسلوا بالسيدة نفيسة لينجوا من أسرهم ، فعلم «الكافر» الذى أسرهم بما عزموا عليه ، فزجرهم

وسبهم ، ومنعهم من ذبح العنز ، فلما بات ليلته تلك ، رأى فى نومه رؤيا مزعجة هالته ، فلما أصبح الصباح أعتق أسراه وأعطاهم دراهم ، وصرفهم مكرمين ، فركبوا مركباً وقدموا مصر ، ومعهم العنز ، وقصدوا مسجد السيدة نفيسة . ونسج الشيخ عبداللطيف، ومن معه من خدم المسجد، هالة عظيمة من المجد حول تلك العنز ، ونسبوا إليها الكرامات ، فقالوا إنها تصعد وحدها إلى منارة المسجد ، وتدخل مقام السيدة، تفعل ذلك وهم يدخلونها حجرة مقفلة ليلا ، فإذا أصبحوا وجدوها حيث تشاء ، فوق المنارة ، أو داخل المقام ، وقالوا إنها ، العنز ، تتكلم ، وأنهم سمعوها بآذانهم ، وأن السيدة نفيسة تكلمت وأوصت بها ، بالعنز ، خيراً . وأن الشيخ عبد اللطيف سمع كلامها من داخل القبر .

وأخذ الشيخ عبد اللطيف هذا ، شيخ المسجد النفيسى ، يبرز العنز للناس ، ويجلسها بجانبه ، ويقول للناس فيها ما يقول ، حتى صارت حديث القاهرة كلها ، وأقبل النساء والرجال من كل فج لزيارة تلك العنز ، يأتون إليها بالنذور والهدايا . فقال لهم الشيخ إن هذه العنز المباركة ، لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، وتشرب ماء الورد ، والسكر المكرر ، فأتوه من ذلك بالقناطير ، وعمل النساء للعنز قلائد الذهب ، والأطواق والحلى يسارعن بها إلى الشيخ . وافتتن الناس بها فتوناً شديداً ، وشاع أمرها فى بيوت الأمراء وأكابر النساء ، فأرسلن ، على قدر مقامهن ، النذور والهدايا ، وذهبن لزيارتها ومشاهدتها ، وازدحمن عليها . ومن لا يسمح لها مقامها بالذهاب لها ، أرسلت للشيخ الهدايا العظيمة ملتمسة زيارة العنز لها .

فلما وصل ذلك كله إلى سمع عبد الرحمن كتخدا ، كبير الأمراء المصريين فى ذلك العهد ، أرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه أن يحضر ومعه عنزه المباركة، ليتبرك بها هو وأهل بيته ، فركب الشيخ بغلته ، وعنزه فى حجره ، ومعه طبول وزمور وبيارق ومشايخ ، وحوله كثير من الناس ، ودخل بطبوله ومشايخه وعنزه بيت الأمير عبد الرحمن ، وصعد بالعنز إلى مجلسه ، وكان عنده كثير من الأمراء والوجوه . فلمس العنز متبركا بها ، ثم أمر فأدخلت إلى الحريم ليتبركن بها وكان الأمير عبد الرحمن قد أوصى كبير طباخيه ، قبل حضور الشيخ ، بأن يذبح العنز

ويطبخها . فلما أتمت العنز زيارة الحريم أدخلوها إلى المطبخ فذبحت وطبخت .

وقدم للأمير، وللشيخ وجلوسهما، الغداء ، ومنه العنز، وكان الشيخ يأكل منها ، وكلما تركها إلى غيرها من الطعام قال له الأمير عبد الرحمن : — كل ياشيخ عبد اللطيف من هذه العنز السمينة ، فيأكل منها ويقول : — والله إنها طعام طيب ، ومستو ، ونفيس ، والأمير وجلساؤه يتغامزون . فلما فرغوا من الأكل ، وشربوا القهوة ، طلب الشيخ العنز ، فعرّفه الأمير أنها هى التى كانت بين يديه فى الصحن ، وأكلها ، فبهت ! « فبَكَّتَه الأمير ووبَّخَه ، وأمره بالانصراف ، وأن يوضع جلد العنز على عمامته ، ويُذهب به كما جاء بجمعيته ، وبين يديه الطبول والأشاير ، ووكل به من أوصله محله على تلك الصورة »

وفى قصة العنز هذه يقول الشيخ عبد الله الأدكاوى هذا الشعر : —

ببنْت رسول الله ، طيّبةِ الثنا	نفيسة ، لذْ ، تظفر بما شئت من عز
ورُم ، من جداها ، كل خير ، فإنها	اطلاّبها ، يا صاح ، أنفع من كنز
ومن أعجب الأشياء ، تيس أراد أن	يُضل الورى ، فى حبها ، منه ، بالعنز
فعالجها مَن نوّر الله قلبه	بذبح ، وأضحى التيس ، من أجلها مخزى

وهكذا لقى هذا الشيخ جزاءه . جزاء من يفشى الجهالة ، ويدعو إلى الضلالة ، ويتاجر بالدين ، ويكذب على الله والناس ، يبتغى عرض الحياة الدنيا وهو الذى يسعى الناس إليه ليهديهم . وليجدوا عنده المثل والقدوة ، فى الصدق ، والعفة والأمانة ، والفضيلة ، وتقوى الله .

ويقول الجبرتى ، عند حديثه عن تعمير مراد بك مسجد الفسطاط ، جامع عمرو بن العاص ، إن هذا الجامع كان بعيداً عن الناس والعمران ، وبقى زمناً متخرباً . وأنه أدرك الناس وهم يصلون فيه الجمعة اليتيمة . ثم يقول ، فى وصف صلاة الناس لهذه الجمعة فيه ، إن الناس كانوا يجتمعون فى الجامع ، للتسلية ، من القاهرة ، وبولاق ، ويحضر بعض الأمراء والأعيان . ويجتمع فى صحنه أرباب الملاهى ، من الحواة ، وملاعبي القرود ، وأهل الملاعيب ، والنساء الراقصات ، المعروفات بالغوازى .

قامت القيامة:

ومما سجله الجبرتى ، عن مستوى التفكير عند أهل هذا العصر ، أنه فى يوم الأربعاء ، الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١١٤٠ ، أشيع فى الناس أن القيامة ستقوم يوم الجمعة السادس والعشرين منه . [٢ أغسطس سنة ١٧٢٨ م] ، وفشا هذا الكلام بين أهل مصر ، فى القاهرة ، والقرى . فودع الناس بعضهم بعضاً وهم يقولون : — بقى من عمرنا يومان . وخرج الكثير من الناس إلى المتنزهات وهم يقولون : فلنمتع نفوسنا بالدنيا ، قبل أن تقوم القيامة . وخرج أهل الجيزة نساءاً ورجالاً يغتسلون فى النيل . وبعض الناس علاه الحزن ، واستولى عليه الخوف والوهم . ومنهم من أخذ يتوب ، ويصلى ، ويدعو ، ويتوسل . ومن بدا عليه الشك فى صدق هذا الذى شاع فى الناس ، لا يلتفتون إليه . ويقولون : القيامة قائمة يوم الجمعة ، ما فى ذلك شك . فقد قال ذلك فلان وفلان ، من اليهود والنصارى العارفين . وقالوا إن بعض هؤلاء العارفين ، عرض على بعض الأمراء أن يسجنه حتى يجيء يوم الجمعة هذا . فإذا لم تقم القيامة ، فله أن يقتله . وكثر فى الناس الهرج والمرج ، حتى جاء اليوم الموعود ، وأصبح الناس يوم السبت. فانتقلوا يقولون : إن فلاناً العالم ، أخبر بأن سيدى أحمد البدوى ، والدسوقى والشافعى ، تشفعوا فى ذلك فلم تقم القيامة . اللهم انفعنا بهم ، فإننا لم نشبع من الدنيا .

مجتمع أهل السيادة

هذه صورة أعتقد أنها كافية ، لتمثيل أخلاق الناس وآدابهم، ومستوى تفكيرهم وإيمانهم . وتأثرهم بالخرافات والبدع . وهذا حكم على المجموع طبعاً . لا على الجميع . وقد رأينا فى هذه الصورة نماذج من أخلاق الجند ، والأمراء ، والولاة . وعامة الناس وأوساطهم . أما أهل السيادة ، فى مجتمع القاهرة . فكانت آدابهم وأخلاقهم ، بعيدة إلى حد كبير عن هذه الرذائل ، والخرافات . وما يشبهها . وكان لأهل هذه السيادة ، من ثروتهم ، وبيئتهم ، ومعارفهم ، وسعة آفاقهم الذهنية والاجتماعية ، ما يجعلهم أقرب إلى التصوّن . وما يجعل حياتهم مزيجاً من هذا التصون ، الذى تفرضه عليهم فضائلهم وآدابهم ومعارفهم ، أو تدينهم ، ومن هذه السماحة التى تقتضيها ثروتهم ، وسيادتهم ، وأذواقهم ، وسعة فراغهم .

ونحن نذكر مثلا لهذه السماحة ، فى مجتمع أهل السيادة فى القاهرة ، أورده الجبرتى .

فهو يقول عن صديقه الحميم ، الشيخ اسماعيل الخشاب ، إنه تعلق بشاب فرنسى من شباب الحملة ، كان جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وكانت بينهما مودة وتصافٍ ، حتى لا يجد أحدهما صبراً على فراق صاحبه .

وقد أورد الجبرتى ، كما أورد على باشا مبارك فى خططه أيضاً ، قصيدة من الشعر ، قطها الشيخ اسماعيل الخشاب فى هذا الشاب الفرنسى ، وصفها الجبرتى أنها « من الشعر الرائق ، ونظم الغزل الفائق » (١) وهى : —

علّقته ، لؤلؤى الثغر ، باسمه ... فيه خلعت عذارى ، بل حلانسكى

ملكتُه الروح ، طوعاً ، ثم قلت له : ... متى ازديارك لى ؟ أفديك من ملك

فقال لى ، وحمّيا الراح قد عقلت ... لسانه ، وهويثنى الجيد ، من ضحك

إذاغزا الفجر جيش الليل ، وانهزمت ... منه عساكر ذاك الأسود الحلك

فجاءنى ، وجبين الصبح مشرقة ... عليه ، من شغف ، آثار معترك

فى حلة من أديم الليل رصعها ... بمثل أنجمه ، فى قبة الفلك

فخلت بدرا به حفّت نجوم دجاً ... فى أسود ، من ظلام الليل ، محتبك

وافى ، وولى بعقل غير مختبل ، ... من الشراب ، وستر غير منتهك

وقد كان الشيخ إسماعيل الخشاب سكرتيراً للديوان الذى أنشأه الفرنسيون فى القاهرة ، يكتب له الأوامر والقرارات . ويسجل ما يدور فيه من قول ورأى . واختاره الجنرال منو رئيساً لتحرير جريدة أراد أن يصدرها فى القاهرة باسم « التنبيه » .

ولست أدرى ، أهو من السماحة ، أم من شىء آخر ، هذا الذى روى عن السيد خليل البكرى .

---

(١) للخشاب ديوان طبعته مطبعة الجوائب فى القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ

كان هذا الشيخ نقيباً على السادة البكرية ، وكبير هذا البيت العريق . وكانت له مع الفرنسيين صلات ومواقف ، تجدها فيما كتبناه عنهم . ولما نزح الفرنسيون وزالت عنه حمايتهم ، أقيمت عليه دعوى من تاجر للرقيق ، ملخصها أنه أخذ غلاما مملوكا من هذا التاجر ، بثمن بخس ، واستعان عليه فى ذلك بالفرنسيين ورفع الأمر فى هذه القضية إلى القاضى . وانتهى النزاع بأن نزع الغلام من السيد البكرى ، وأعيد للتاجر . وكأن هذا الغلام كان ذا منزلة عظيمة فى نفس الشيخ. فإن الجبرتى يقول : إنه عند ما نزع منه « تجرع فراقه » .

ويقول نقولا الترك ، عن السيد خليل البكرى ، إن نابليون خلع عليه نقابة الأشراف ، بدلا من الزعيم السيد عمر مكرم ، لأن السيد خليل « كان محباً لجمهور الفرنساوية . فلأجل ذلك بغضته الإسلام المصرية » .

ويقول عنه نقولا أيضاً « كان فى أكثر الأوقات ، شرب ، فى منزله ، مع الفرنساوية ، المنكرات » .

ونقولا ، كما نعرف ، كان شديد اللصوق بالفرنسيين . ودائم الاتصال بهم ، يستطيع أن يعرف وأن يرى من شؤونهم ، وشؤون من يتصل بهم ، الشىء الكثير وسنجد فى موضع آت من هذا الفصل حديثاً آخر عن الشيخ البكرى وعن بنت له .

وقد رأينا فى تراجم العلماء ، وشيوخ الأزهر ، وكانوا سادة فى مجتمع أهل القاهرة ، أمثلة أخرى لهذه السماحة ، التى يرعاها التصون ، والعفة .

ومما حفظه لنا الجبرتى عن حياة الناس ، فى ذلك العصر ، ويتصل بأخلاقهم وآدابهم . أنه كانت فى القاهرة ، وفى غيرها من المدن أيضاً ، مواقف . تقف فيها النساء المحترفات للبغاء . وكانوا يسمونهن « الخواطى » . وذكر مدينة جرجا ، عرضا ، ضمن البلاد التى كانت فيها هذه المواقف . ويفهم مما ذكره أن الحكام كانوا يفرضون عليهن ضريبة . وكذلك كانت ، فى القاهرة وغيرها ، أماكن لشرب الخمر والبوظة . كانت تفرض عليها الضرائب أيضاً .

وكان بعض الولاة يمنع ذلك كله . كعبد الله باشا الكبورلى ، فى القاهرة . وسليمان بك القاسمى ، فى جرجا .

وكان نظام الطبقات ، هو النظام السائد فى ذلك الوقت . وكانت سيادته صارمة . حيث يعلو الحكام من الأتراك خاصة ، على المصريين علوا كبيراً . وكان الناس يقبلون ذلك راضين ، أو ساخطين ، أو غير مدركين .

عند ما سئل سليمان الحلبى ، قاتل الجنرال كليبر ، هل يعرف الوزير الأعظم..؟ أى الوالى التركى ، قال إن مثله لا يعرف الوزير « لأنه ابن عرب » .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، وأشد إثارة للعجب . لما فيه من الدلالة على فوارق المجتمع وحدوده . حتى بين العلماء ورجال الدين أنفسهم . فعند ما سئل سليمان هذا هل زار الشيخ الشرقاوى ، وهل يعرفه ..؟ قال إنه لم يره ولم يعرفه « لأنه ليس من ملّته — يقصد مذهبه — فالشيخ الشرقاوى شافعى . وسليمان حنفى » .

فضائل الناس

وكانت فضائل الناس ، من الأمانة ، والمروءة ، والكرم ، والتعاطف . تبرز واضحة قوية ، عند ما تكون حياتهم هادئة مستقيمة سهلة . لا يكدّرها عليهم وباء ، أو حرب أهلية ، أو قحط ، أو غلاء . ولم يكن الناس ، فى ذلك الوقت يعرفون اشتراكية الدولة . ولا الضمان الاجتماعى ، ولا تنسيق الثروة وتوزيعها . بل كان فيهم ، حتى فى هذه الأيام الهادئة ، المستقيمة ، السهلة . الفقر المدقع ، والكدح الكادح فى سبيل كسرة الخبز . ولكنهم ، مع ذلك ، كانوا أهل أمانة ، ومروءة ، وكرم ، وتعاطف . وكان الأغنياء يعرفون حق الفقير عليهم ، ويؤدونه . دون أن يلزمهم به قانون .

كانت بولاق مقراً لجمرك القاهرة . وكانت تكدس فيها الغلال الوافرة ، على الساحل ، دون أن توضع فى مخازن . ودون أن يحرسها أحد . وقد وصفها مسيو جومار ، أحد مهندسى الحملة الفرنسية . ولم يفتْه مغزى ذلك . بل قال « إن الثقة

بين الناس فى مصر ، كانت على أتم ما يكون . بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد يد إلى تلك الغلال[١] » .

وكان فى كل بيت من بيوت الأعيان مطبخان ، أحدهما للرجال ، فى أسفل البيت، والثانى فى مكان الحريم . فيمد صاحب البيت السماط ، فى وقت الغداء ، والعشاء ، مستطيلا فى مكان بارز من البيت ، يراه الناس جميعا . ثم يجلس إلى هذا السماط ، وحوله الضيف من كل قاصد . ودون سيّد البيت ، مماليكه ، وأتباعه . ويقف الخدم فى وسط السماط ، يفرقون الطعام على الآكلين ، ويقربون إليهم ما بعد عنهم من المقلى ، والمحمر . ولا يمنع أحد من الدخول ، وقت الطعام ، أبدا . ويرون ذلك من أكبر العيوب . حتى كان بعض ذوى الحاجات ، إذا حجب من الدخول على أمير ، أو كبير ، انتظر وقت الطعام . فلا يمنعه أحد ، فيدخل ، ويأكل ويصل إلى غرضه من ملاقاة الأمير ، ومخاطبته فيما يشاء وكان من عادة الأمراء وأهل السيادة ، إذا رأوا على مائدتهم رجلا لم يروه من قبل ، ولم ينصرف بعد الطعام ، عرفوا أن له حاجة . فلا يخجلوه بأن يبدأ بها ، أو يتحدث إليهم فيها . بل يطلبه سيد البيت فيسأله عن حاجته فيقضيها له ، وإن كان محتاجا ، بره ، وأعطاه وهذا من أسمى ما تصل إليه رقة العاطفة ، والتلطف فى قضاء حاجة المحتاج . مع ستر مروءته وحيائه .

وكانت للناس مواسم للخير ، يبرون فيها الفقراء ، ويذكرونهم بالصدقات . منها أيام أول رجب ، وليلة الإسراء والمعراج ، ونصف شعبان ، وليالى رمضان ، والأعياد ، وعاشوراء ، ومولد النبى . وفى هذه الأيام يطبخون الرز باللبن ، والزردة ، ويملؤون منها قصاعا كثيرة ، يفرقونها على من يعرفونه من المحتاجين . ويجتمع فى كل بيت ، من بيوت الأغنياء ، الفقراء ، والمحتاجون ، فيفرق عليهم الخبز . ويأكلون حتى يشبعوا من ذلك الرز باللبن ، والزردة . ويعطونهم ، بعد ذلك ، مالا . ولحما ، غير ذلك ، صلات وصدقات ، على من يعرفون من الفقراء . فى غير هذه المواسم والأيام .

وكذلك كان حال السراة من أهل الريف . وسنذكر ذلك فى موضعه .

---

(١) ص ٥٩ جزء ١ من كتاب تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى

المحتسب والتسعير الجبرى

وكان الناس ، فى القاهرة خاصة ، يعرفون نظام التسعير الجبرى ، والعقوبة على من يبيع بأزيد من الثمن الذى فرضته الدولة . أو يطفّف الكيل والميزان .

كانت من الوظائف الهامة ، فى ذلك الوقت ، وظيفة المحتسب ، أى أمين الاحتساب . وهى وظيفة قديمة فى الدول الإسلامية المختلفة ، أنشأها عمر بن الخطاب ، وكانت من الوظائف القضائية . لا يتولاها إلا كل من له قدم راسخة فى المعارف ، والعلوم ، والقوانين الشرعية . وكان لصاحبها سلطات واسعة . كان من سلطة المحتسب أن يختبر الأطباء والجراحين ، والبياطرة ، ومعلمى الأطفال ، فى الكتاتيب ، ومعلمى السباحة فى الماء ، قبل أن يزاول كل منهم عمله ، وله كذلك أن يستمع لمن يريد تدريس العلوم ، ويناقشه قبل أن يأذن له بالتصدر للتدريس . وكانت له مراقبة المراكب المسافرة ، والدواب المعدة للحمل ، وروايا الماء ، التى تحمل ليستقى الناس منها .

وكان من شأنه فرض التسعير الذى يراه محققاً ليسر الفقير ، ومجزيا لربح التاجر والبائع . وإلزام الناس بالعمل به . وعقوبة الخارجين عليه . وكانت لبعض المحتسبين فى ذلك صرامة قاسية . وعقوبات شاذة ، عجيبة . ومنهم من كان على غير ذلك .

فمن أهل الصرامة القاسية ، والعقوبات الشاذة العجيبة . المحتسب محمد أغا أباظة . كان إذا أنقص الجزار فى وزنه شيئاً من اللحم ، قطع من جسده قطعة وفّى بها هذا النقص ، فى الوزن . ومصطفى كاشف كرد ، وعثمان أغا الوردانى . كانا كذلك أشد المحتسبين قسوة . كان بعضهم يأمر بأن يربط مخالف التسعيرة بالحبال عارى الرأس . ثم يصلب على مفترق الطرق . ويأخذ رجال المحتسب الأشداء فى ضربه بالنبوت ، أو جلده بالسوط ، حتى يأمرهم بتركه . وكان بعضهم يأمر بقطع شحمة الأذن بالسكين ، عقوبة على المخالفة . ويأمر بخرم الأنف ، وتعليق اللحم أو الخبز الذى باعه صاحبه بأكثر من سعره ، فى فتحة الأنف ، ويسير

به الجند ، على هذه الصورة ، فى شوارع القاهرة . وكانوا يسمون هذه العقوبة « التجريس »

وباع رجل مرة « كنافة » بأزيد من سعرها . فأجلسه المحتسب فوق صنية الكنافة ، وهى على النار .

وجرّسوا رجلا بأن أركبوه حماراً ، ووجهه إلى خلف ، وهو قابض بيده على ذنب الحمار ، ووضعوا على رأسه عمامة هى مصارين حيوان مذبوح . وعلى كتفه أمعاء هذا الحيوان . وحلقوا نصف ذقنه ، ونصف شاربه . وساروا به فى مسالك القاهرة ، على هذا الحال . وكان الآمر بهذه العقوبة هو ، لاظ محمد ، كتخدا محمد على ، سنة ١٢٢٩ هـ .

وكانوا فى بعض الأوقات ، يعاقبون على شرب الدخان وكثيراً ما كانوا يشربونه فى « الجوزة » . فأمر المحتسب — فى ولاية محمد باشا اليدكشى سنة ١١٥٦ — من يشرب الدخان . بأن يأكل حجر « الجوزة » بما فيه من الدخان ، والنار .

وعاقب محتسب محمد على ، مصطفى أغا كرد ، من يطيل السهر ، بقطع أذنه ، أو أنفه .

وكانوا يفرضون سعراً لكل ما يحتاجه الناس ، من الخبز ، واللحم ، والقماش ، والماء ، والجبن ، والزبد ، والسمن ، والعطور ، والخضار . وكان يوزن بالرطل ، — حتى الفجل ، والليمون — والقمح ، والفول ، والعدس ، والصابون ، والبن والسكر ، والشمع

وقد وصف الجبرتى موكب المحتسب ، الأمير على أغا مستحفظان ، وصفاً يبعث الرعب فى النفوس . فقد كان يضع على رأسه العمامة الديوانية ، المعروفة بالبيرشانة . وأمامه أصناف الجند ، من القابجية ، والملازمين ، وأمراء الأبواب ، مع طوائفهم . وخلفه الجوايشية ونائب القاضى ، وقواس يحمل كيساً مملوءاً بالمكاكيز ، أو النبابيت ، ثم يقف على رأس كل شارع ، وحارة ، فينادى مناديه

بالأسعار ويقول الجبرتى إنه أمر فى يوم واحد ، هو ثالث أيام عيد الفطر ، بأن يضرب ، بالعكاكيز ، ستة من مخالفى التسعيرة . فماتوا جميعاً من الضرب .

وكان على أغا هذا يسير بموكبه يوما ، فالتقى به كبير من المماليك ، هو إسماعيل بك الدفتردار . فلما أحس إسماعيل بك بقدومه ، من بعيد ، أخلى له الطريق. حتى مر . فلما عوتب فى ذلك ، قال إنى فعلت ذلك لأننا كتبناه على أنفسنا ، وحتى نكون مثلا لغيرنا من الناس ، فى احترام المحتسب ، وطاعته .

وقد مات على أغا مستحفظان ، فى سنة ١١٢٣ هـ ، وهو ساجد فى صلاة الجمعة ، فى اليوم الثانى من أيام عيد الفطر . ورثاه الشيخ حسن البدرى الحجازى بقصيدة يقول فيها : —

أحلّ البـــلايا ، والرزايا وما دهى ... وما كان قدّاعا ، بمن دأبه الظلم
من السوقة الأشرار ، الانجاس[1] من لهم ... من البخس والخسران ، عزم له عزم
فأرجح مـــيزانا ، وأوفى مكايلا ، ... وأخمـــد نيرانا ، وقام به سلم
وليس له من مبغضٍ ، غير مغرض ... عن الحق ، أومن فى عقيدته سـقم
وظن بليدُ الطبع ســـوءَ فعالهِ ... فقلت له : اكفف ، فاتك العلم والفهم

الحياة فى الريف

عندما يكتب الجبرتى عن ريف مصر ، وقراه . يذكر الفلاحين ، والعرب . وهؤلاء هم سكان الريف وأهله . وقد تناول الجبرتى حياة الفلاح ، وخلقـه ، فى الجزء الرابع من الكتاب ، بما يمكن أن نجعله صورة كاملة له . ومنها نرى أنها صورة لم ينلها كثير من التغيير ، كما نعلم ، ولكنا نرجو أن ينالها ، تغيـير شامل . فى وقت قريب أو بعيد .

فى شهر جمادى الأولى من سـنة ١٢٢٩ أطلق محمد على رجاله من الكتبة ، والأقباط ، والرزنامجى ، إلى جزيرة شلقان لتحرير دفاتر الأطيان ، وقياسها على الطبيعة ، وفرض الضرائب .

---

(١) لصحة الوزن تحذف الألف الأولى من هذه الكلمة ، ولا تنطق الهمزة .

ويتخذ الجبرتى هذه المناسبة سبيلا للحديث عن الفلاحين ، وما يلقونه من ظلم ، وعنت ، ومذلة ، وهوان . وأنهم ، عندما رأوا رجال العولة هؤلاء ، جفلوا ، وتركوا أوطانهم وزروعهم . وباعوا مواشيهم ، ودقموا أثمانها فيما زاد عليهم من الضرائب . ثم يقول إنهم ، بعد فرارهم ، « سيعودون مثل الكلاب ، ويعتادون سلخ الأهاب » وأنهم كانوا أذل من العبد الذى يشترى بالمال ، فربما هرب العبد من سيده ، إذا كلفه فوق طاقته ، أو أهانه . أما الفلاح فلا يستطيع ، ولا يسهل عليه أن يترك وطنه وأهله . ولو أنه استطاع ، وفعل ، فسيجىء به الظالمون مرة أخرى ، قهراً ، ليزيدوه نكالا وإذلالاً . ثم يتحدث عن «العونة» و «السخرة» فيقول إنهم كانوا ينادون على الفلاحين ليلا للتبكير فى صباح اليوم التالى للعمل فى خدمة «الملتزم» . فمن تخلف ، حتى بعذر ، أحضره الخفير ، أو المشد ، يجره من شنبه ، ويشبعه شتما وضرباً . وقد اعتاد الفلاحون ذلك حتى صاروا يرونه واجباً ! وكانوا يلاقون من المغالطة فى الضرائب والأموال المفروضة عليهم أشياء كثيرة . فقد يدفعون هذه الضرائب أكثر من مرة ، لأنهم لا يستطيعون مراجعة المحصلين ، ولا طلب « الورد » منهم ، حتى يكون حجة فى يدهم على السداد . ويستعمل الجبرتى كلمة « الورد » بمعناها الذى يعرفه مالكوا الأراضى الآن فى مصر . وقد يدفعون قدراً من المال يوازى الضريبة نفسها « هدية » المحصلين . أو تفرض ضرائب أخرى من المحصلين يأخذونها لأنفسهم ، وهى « حق الطريق » الذى أشرنا إليه من قبل . وإذا ادعى مدع على آخر مالا ، وكتب بذلك إلى الحاكم . أمر هذا رجاله بالذهاب إلى المدعى عليه ليدفع ما ادعاه عليه المدعى ، ولو لم تكن معه وثيقة ولا سند ، ثم يدفع بعد ذلك حق الطريق لرجال الحاكم . فإذا تأخر أرسل إليه آخرين . وفرض لهم حق طريق آخر للاستعجال . فإذا لم يدفع حبس وضرب حتى يدفع هذا كله .

وقد أفسد هذا الظلم نفوس الفلاحين ، وأخلاقهم . حتى أنهم ، كما يقول الجبرتى ، كانوا إذ ولى أمرهم رجل عادل رحيم ، ازدروه فى أعينهم ، واستهانوا به وبرجاله ، وماطلوه فى دفع ما عليهم . بل كانوا يسمونه بأسماء النساء ..! استهانة به

واستخفافا بأمره. وتمنوا زواله، حتى يولى عليهم جبار لا يرحمهم كما أفسد هذا الظلم نفوسهم بإيقاع بعضهم الشر ببعض، وأكلهم ما قد يكون تحت يدهم من مال الوقف. حتى تخربت مساجد كثيرة، وأسبلة، لأن المتنظرين عليها من الفلاحين، وأعيان الريف، كانوا يأكلون ريع ما وقف عليها، مهما كان كثيراً.

كما كان يقع بينهم كثيرين من الخصام، وكثير من القتل أيضاً.

وقد ألف الشيخ حسن البدرى الحجازى أبياتاً أربعة، فى وصف حال الفلاحين إذ ذاك، وما كان ينزل بهم من بلاء، فقال: —

وسبعة بالفلاح قد أنزلت ... لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم، أستاذهم[1]، والمشد، ... والقتل، فيما بينهم، والقتال
مع النصارى، كاشف الناحية ... وزد عليها كدهم فى اشتغال
وفقرهم ما بين عينيهم ... مع اسوداد الوجه. هذا النكال

وهذا الذى كتبه الجبرتى عن الفلاحين، كان هو الحال الغالب الأعم فى كل هذه السنين التى دون تاريخها. كما أن هذه الصفات التى أشار إلى بعضها، وهذه النوازل التى عد الشيخ الحجازى سبعا منها، كانت هى صفاتهم الغالبة ونوازلهم أيضاً فى هذه السنين، وفى تاريخهم الطويل وهى، كما أشرنا، نتيجة طبيعية للظروف الاجتماعية التى سادتهم، ونوع الحكم الذى كانوا يحكمون به. فهم ضحية للظلم والفساد، والإقطاع والإستبداد.

وكان أسوء ما يبتلى به الفلاحون، فوق ما يقع عليهم من ظلم وسخرة، القحط، بنقص فيضان النيل، والغرق، بزيادة الفيضان. والأوبئة[2]. فنقص النيل كان يلازمه، بطبيعة الحال بوار الأراضى، وتلف الزرع، وموت البهائم، والناس أيضاً فى أحيان كثيرة، من العطش والجوع. وكانت الزيادة توقع التلف بالزروع.

---

(١) الأستاذ هو الملتزم، الذى يأخذ الضرائب.

(٢) اجتاحت الأوبئة مصر فى هذه الفترة، فى سنوات ١٠٥٢ و ١١٠٨ و ١١٤٧ و ١٢٠٥ هـ. وهى تقابل سنوات ١٦٥٢، ١٦٩٦، ١٧٣٤، ١٧٩٠ — ١٧٩١ م

وتمنع الإفادة من الأراضى فى بعض الأحيان . وكثيراً ما كان يجىء الغرق ، والوباء معاً ، متعاقبين كما حدث فى سنة ١٢١٥ « ١٨٠٠ » م فقد جاء فيضان النيل فيها عالياً . ثم أعقبه الطاعون . فكان الناس لا عمل لهم إلا دفن الموتى. وقد أرسل الشيخ حسن العطار ، وكان قد ترك القاهرة إلى أسيوط فراراً من الوباء ، إلى صديقه الجبرتى ، كتاباً يقول فيه إن عدد الذين يموتون فيها بسبب الطاعون ، كان يقرب من ستمائة ، كل يوم . وكان هذا الوباء ومثله ، يستتبع ، بطبيعة الحال ، مجاعة ، بسبب هجرة كثير من الفلاحين من بلادهم . وموت الكثيرين منهم ، وانشغال الآخرين بموتاهم . وقد ذكر مسيو جومار ، أحد مهندسى الحملة الفرنسية ، أنه مات بهذا الطاعون ، فى شهر واحد ، عشرة آلاف ، من سكان القاهرة . وقدر الدكتور لارى ، كبير جراحى الحملة ، من ماتوا بهذا الوباء ، بمئة وخمسين ألفا . فى القاهرة ، والوجه القبلى .

حبيب وهمام :

أما حياة العرب ، فى ريف مصر ، فسنتخذ مثلا لها ، من ترجمة أسرة حبيب ، وسيرة شيخ العرب همام . وكانت الأولى صاحبة السطوة فى إقليم الوجه البحرى ، وكان الثانى زعيما على الهوارة . وصاحب السطوة والجاه ، فى الصعيد . وكان سويلم وهمام متعاصرين . وماتا فى سنة واحدة .

يصف الجبرتى سويلم بن حبيب ، بأنه المقدام الشهير ، والضرغام النجيب ، من أكابر عظماء مشايخ العرب بالقليوبية . وكانت مساكنه ، ورجاله ، فى دجوة على شاطىء النيل . أما أبوه حبيب فأصله من قرية بجوار أسيوط إسمها شطب . فلما مات حبيب تولى الرياسة ابنه الأكبر سالم ، وكان فارساً شجاعا . حتى جعله الناس وفرسه ، مقوّمان ، فى الحرب ، بألف فارس . فطار صيته وكثرت جنوده وفرسانه وخيوله . ودخل فى طاعته العرب كلهم . لا يفعلون شيئاً إلا بأمره واتسع سلطانه ، وعظم أمره وبطشه . وجعلت له حراسة البرين على النيل ، من بولاق إلى رشيد ودمياط . وكانت بين سالم وأبيه وبين الأمير الكبير إسماعيل بن إيواظ

خصومة وحرب ، فتسلل سالم إلى خيل كانت لابن إيواظ فقطع معارفها وأذنابها وتركها . فغضب ابن إيواظ من ذلك ، غضباً شديداً ،وأسرّها له . ثم سلط عليهما رجلا شجاعا من أمرائه . اسمه حسن أبو دفّية . فحارب أولاد حبيب . وسلط عليهم المدافع . ولم تكن عندهم مثلها . فحاربوه بخيولهم ، وبنادقهم . واستطاع سالم أن يهزم أبا دفيه . وأن يلقى مدافعه فى النيل . فقام ابن إيواظ بنفسه لحربه . حتى هزمه ، وحرق بيوته كلها فى دجوة . وسلبه ما فيها من خيول ، وأبقار ، وأشياء كثيرة .

ولم ير حبيب بداً من الفرار إلى غزة ، حيث مات فيها . فعاد سالم إلى مصر . واحتال حتى دخل ، مع صديق لوالده ، على ابن إيواظ . فلما عرفه قال له : — أتيت بيتى ولم تخف . ؟ فقال له سالم نعم، أتيت وكفى معى . إما أن تنتقم فتقتلنى. وإما أن تعفو . فرحب به ابن إيواظ . وطلب إليه أن يحضر أهله وكتب له أماناً وأنعم عليه بكسوة وأذن له فى أن يقيم حيث كان أبوه . وأوصاه أن يتقى الله. ثم ذهب حيث أقام عند كبير آل الشواربى حتى أقام بيوته ، وبيوت أهله وأنصاره فأنشأ له ولهم دوراً عظيمة ، وحدائق، وسواق ، ومعاصر ، ومساجد . ثم تولى، بعدذلك ، حراسة البرين ، من بولاق إلى رشيد ودمياط . وأصبح صاحب الكلمة النافذة فى بلاد الوجه البحرى كله . وصارت كل السفن التى تشق النيل فى هذه البلاد ، تحت حكمه . يفرض عليها الضرائب ، الشهرية والسنوية . فزاد فى سعة حدائقه . وأنشأ على النيل بستاناً عظيما غرس فيه أنواع النخيل وأشجار الفاكهة المختلفة . حتى كانت فاكهته لا تنقطع صيفاً ولا شتاء . وأحضر له البستانيّين من رشيد والشام . ثم اشترك فى حروب قامت بين كبار المماليك نال فيها نصراً ومجداً وأموالا عظيمة . فاشترى الجوارى البيض . وبقى على حاله ، من السطوة والثروة حتى مات فى سنة ١١٥١ . وتولى أخوه سويلم حراسة البرين بعده ، فزادت سطوته وثروته . حتى كان رجاله يقفون فى طريق السفن التى تسير فى النيل وينادون رجالها . فإذا أطاعوهم فرضوا عليهم ما أحبوا من ضريبة . وأخذوا ما شاءوا من بضاعة وأن عصوا عليهم قطعوا طريقهم ، وجاءوا بهم صاغرين ، وأخذوا

منهم أضعاف ما يأخذون عادةً . وأنشأ سويلم لنفسه حرساً من العبيد السود ، يركبون الفرسان . ويلازمونه حيث سار . وكان لا يبيت فى داره . بل يجىء فى الثلث الأخير من الليل ، فيدخل إلى بعض حريمه . ثم يخرج عند الفجر إلى ديوانه فيحضر اليه الكتبة ، يعرضون أوراقهم ، ويتلقون ما يأمرهم به ، ويكتبون ما يريد أن يرسل من كتب ورسائل إلى القاهرة ، أو البلاد التى تخضع لحكمه . ويحضر إلى ديوانه أيضاً أرباب الحاجات ومشايخ البلاد ، والجند ، والملتزمون ، والفلاحون ، والعرب . وكلهم واقف بين يديه . ولا يستطيع ملتزم ، ولا حاكم ، ولا شيخ ، فى القليوبية والشرقية خاصة ، أن يبرم أمراً إلا بموافقته . وزاد سويلم فى بناء مساكن أهله فى دجوة ، فأنشأوا دواراً عظيما ، له مقاعد شاهقة الارتفاع ، تحمل على عروشها أعمدة عليها بوائك مقصورة يراها الناس من مسافة بعيدة فى البر والبحر وفيها مجالس عدة ، ومخادع ، ولواوين ، وفسحات علوية وسفلية . وبنى بداخله مسجداً ومكاناً فسيحاً ، للضيوف من كل جنس وطارق . وجعل أمامه على شاطىء النيل طريقاً فسيحاً ، ومساطب لجلوسه . كما بدأ يتخيّر ، ويتأنق فى ركوبه ولباسه . حتى كان النـــاس ينسبون إليه ما يبتدع فى ذلك : فيقولون هذا سرج حبايبى — أى منسوب لابن حبيب — وشال حبايبى ، ومركوب حبايبى ، وكان ، إلى شدة مرامه ، وقوة بأسه — كريماً — يحب العلماء وأرباب الفضائل ويأنس بهم . ويستطيع أن يشاركهم حديثهم . ويرسل إليهم الهدايا .

وبقى سويلم ، وأسرة حبيب حتى تولى على بك الكبير حكم مصر فحاربهم حتى قتل سويلم ، وخمسة وأربعين من كبارهم . ثم قضى على من بقى منهم بعد ذلك ومحا ما كان لهم من سطوة وهيبة . وكان ذلك فى سنة ١١٨٣ هـ

وأما شيخ العرب همـام ، فيصفه الجبرتى بأنه الجناب الأجل ، والكهف الأظل ، الجليل المعظم ، والملاذ الأفخم ، ملجأ الفقراء والأمراء ، ومحط رحال الفضلاء والكبراء . الأمير شرف الدولة همـام بن يوسف بن أحمد ، الهوارى . عظيم بلاد الصعيد . ثم يطنب فى ذكر ما يتصف به من الكرم . فمن ذلك أنه كان إذا نزلت بساحته الوفود من الضيفان ، تلقاهم خدمه ؛ وأنزلوهم فى أماكن معدة

وأحضروا لهم ما يحتاجونه من الحوائج . وتقدم لهم ، مهما طالت إقامتهم ، الأطعمة الفاخرة فى الغداء ، والعشاء ، والإفطار. ويجدون ، فى كل وقت ، السكر ، والحلوى ، والمربات ، وشمع العسل ، والآنية النظيفة ، الكثيرة ، لطعامهم وشرابهم . وكان بعض الناس يقيم فى ضيافته شهوراً ، وهو لا يعرفه . وطعامه لا ينقص ، وكذلك خدمته وإكرامه ؛ فإذا انتهت ضيافة الضيفان . ورأى فيهم محتاجا ، أكرمه ، وأعطاه أكثر مما كان يرجو وينتظر . ومن الناس من كان يقصده ، فى كل سنة ، فينال من بره ما يكفيه السنة كلها . أما من يقدم عليه من كبار الناس أو من أهل الفضائل ، فإنه كان يزيد فى إكرامهم . ويهدى إليهم الجوارى ، والعبيد ، وقناطير السكر ، والغلال ، والسمن ، والعسل . وكان هذا حاله على الدوام ، فى كل أيام السنة . فكان الخدم يهيئون الفطور للضيوف من طلوع الفجر ، فلا يفرغون من ذلك إلا فى الضحى . ثم يشرعون فى تهيئة الغداء ، فلا يفرغون منه إلا قريبا من العصر ، ثم يشرعون فى تهيئة العشاء إلى وقت من الليل .

وكان رجلا بشوشا ، قوى الذاكرة . إذا رأى إنسانا ، مرة واحدة ، ثم غاب عنه سنين ، ورآه بعد ذلك ، عرفه وأقبل عليه . وإذا جلس إلى كتّابه وحاسبى أمواله . أخذ يستمع إليهم ، ويأمرهم ، ويملى عليهم كتبا ، ومراسيم . لا يغرب عن فكره كبير أو صغير . وكان يفعل ذلك فى الليل ، ثم ينام ساعة قليلة ، يقوم بعدها إلى الصلاة . وعندما يجلس إلى الناس يضع إلى جانبه فنجانا فيه قطعة من القطن ، وماء الورد ، فإذا قرب منه بعضهم ، مسح بتلك القطعة — بعد انصرافهم — عينيه ، وشمها .

وكان هام كثير الأكرام للعلماء . زاره السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، فأكرمه إكراما عظيما . وأهدى له الغلال ، والسكر ، والعبيد ، والجوارى . وكان هذا شأنه مع أهل العلم والفضل .

أما ثروته فكانت عظيمة جداً . من ذلك أن عدد الثيران ، التى كانت مخصصة لزراعة القصب وحدها ، كان إثنى عشر ألفاً . وعنده غيرها ، من الثيران المعدة للحرث ، ودرس الغلال ، والطواحين ، والسواقى . وغيرها من الجواميس والأبقار .

أما مخازن الغلال ، وحواصل السكر ، والتمر ، بأنواعه المختلفة ، والعجوة . فشيء لا يمكن حصره وكان من يرى مخازن الغلال ، من بعيد ، يظنها مزارع ، لطول مكث الغلال فيها وكثرتها . فيتزل عليها المطر . وتختلط بالتراب . فتنبت وتصير خضراء ، كأنها مزروعة . وكان عنده من الجند ، والقواسة ، من المماليك ، عدد وافر . أقاموا عنده ، وتزوجوا . وتخلقوا بأخلاق الحوارة ، وتعلموا لغتهم وله دواوين وكتاب عديدون من الأقباط . ومحاسبون ، ومحصلون . لا يقف عملهم ليلا أو نهارا . وعنده من الجوارى ، والسرارى ، والعبيد ، شيء كثير جدا . أفرد لهم سجلا خاصا . وفى ختام كل سنة يطلب من كاتب هذا السجل عدد من مات منهم . وقد يكون أربعمائة ، أو خمسمائة ، فى سنة واحدة .

ووقعت حروب بين على بك الكبير ، وبين خصوم له من المماليك . كانوا من أصدقاء همام ، وكان يعينهم . فلما تغلب عليهم على بك ، عرف همام أنه لن يتركه . وغدر به ، بعد ذلك ، بعض أهله ، وانحازوا إلى على بك . فترك همام فرشوط ، حيث كانت منازله وبيوته . ورحل إلى إسنا ، فمات بها فى شعبان من سنة ١١٨٣ ، وهى نفس السنة التى مات فيها سويلم بن حبيب .

وترك أولاداً ثلاثة : درويش ، وشاهين ، وعبد الكريم . واستطاع أولهم أن يترضى على بك ، فأعاده إلى فرشوط ، وإلى مكان أبيه ولكنه كان قاسيا سيء السيرة . أخذ يقبض على خدم أبيه ، ويسلب أموالهم . فأخذ من خادم يسمى زعيتر ، كان وكيل البصل المرتب لمطابخ همام ، أموالا عظيمة . منها أربعون ألفاً من الذهب البندقى ، دفعة واحدة . وكذلك أخذ من العامل المخصص لصناعة الأبراد لكسوة الجوارى السود والعبيد . ومن وكلاء الغلال ، والسكر ، والسمن ، والعسل ، والتمر ، والشمع ، والزيت ، والبن . وشركاء المزارع . فلما علم على بك بما فعل بهؤلاء . وما جمع من أموالهم . أخذها منه . ثم صادره محمد بك أبو الذهب ، بعد ذلك ، فى كل ماله . حتى أخرج ما فى بيوته من المتاع ، والآنية ، والنحاس . فكانت قناطير مقنطرة . وجاء درويش هذا بعد ذلك إلى القاهرة ، فمات فيها ، كما يموت أى فرد من الناس .

وكان بعض أبناه همام ، كما كان بعض أفراد أسرة حبيب ، من أصدقاء الجبرتى

المسلمون والنصارى

كان وجدان الناس ، فى هذا العصر الذى نؤرخه ، وجداناً دينياً . ولم تكن العاطفة الوطنية قد وجدت عند المصريين . وهذه فترة من الزمن ، مرت بها كل أمة . فالعاطفة الوطنية عاطفة طارئة على شعور الناس جميعاً ، وإحساس محدث نبت ، ونمى ، عند أهل الأوطان كلهم ، بعد أطوار سابقة عليه . مرت بها مصر كغيرها من الأمم . وما كانت الحروب الصليبية إلا تنفيساً عن هذا الوجدان الدينى . أخذ طريقه إلى الخصام والدم . بدلا من المحبة والرفق . وقد عاش العالم كله دهوراً طويلة لا يجد أهله لهم عاطفه عامة ، ولا وجدانا ، إلا هذا الوجدان الدينى .

ثم ظهر بعد ذلك الشعور بالوطن ، ووجدان الوطنية .

كان وجدان الناس فى مصر إذن ، دينياً . وكانت عاطفة الدين ، والمشاركة فى العقيدة ، هى الشعور الذى يجمع الناس بعضهم إلى بعض . ولذلك يقول الجبرتى : قام المسلمون ، وفعل المسلمون . وهو يقصد المصريين . ونجد فى الوثيقة التى سجل بها الفرنسيون مقتل الجنرال كليبر ، أنهم قبضوا على « المسلم » سليمان الحلبى . ولكن العلاقات والصلات ، بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى ، وخاصة المسيحيين ، كانت — فى عمومها — علاقات مودة وأخوة . بقدر ما تسمح به ظروف الأحوال وملابستها . وقد كانت العلاقات والصلات بين المسلمين أنفسهم ، لا تخلو كذلك من شرور ، ومن خصام وعنف . وحرب أيضاً . فكثيراً ما نرى الحرب قائمة ، فى هذا العصر ، بين الجند ، والمصريين . وكلهم مسلمون أو بين المماليك والدولة ، أو بين المماليك بعضهم وبعض . أو بين المصريين والوهابيين . وكل هؤلاء المتحاربين مسلمون .

كان المسلمون يعاملون غير المسلمين ، عادة ، بروح التسامح ، والرفق ، التى أوصاهم بها القرآن الكريم . وكان غير المسلمين ، عادة ، يقابلون هذا التسامح

والرفق ، بما يوجبه عليهم من الولاء ، والمحبة ، والإخلاص . وكان المسلمون وغيرهم يقعون تحت نير واحد من الظلم ، والجبروت . فهو كفيل بتوحيد عواطفهم ، أو تقريبها . إلى جانب الأسباب الأخرى للتوحيد والتقريب . وهى المشاركة فى العمل ، والجوار . والخلطة . والتقارب العنصرى والثقافى .

هذا الولاء ، وهذه المحبة والاخلاص . وجده غير المسلمين ، فى الجملة ، فى مصر . وقد كان العالم كله ، إذ ذاك ، أقرب إلى التعصب الضيق ، منه إلى السماحة الكريمة الرحبة . وكان الناس قريبين إلى بقايا الحروب الصليبية . ما تزال باقية ، فى آفاق أوطانهم ، أصداء تلك النواقيس التى دعا إلى دقها بطرس الراهب . وما يزال آباؤهم وأجدادهم يتحدثون إليهم عن وقائع هذه الحروب ، فى دمياط ، وغيرها من الثغور . وما يزال « فرسان مالطة » يتربصون بالسفن فى البحر الأبيض ، ويغيرون عليها ، متأثرين بهذه الحمى ، التى ملأت رؤوسهم بها نواقيس بطرس الراهب .

فى هذه الأيام نفسها ، وتحت تأثير هذه المشاعر التى توحى بالانحراف والتطرف ، لم يجد غير المسلمين ، فى مصر ، إلا الأخوة ، والمعزة ، والكرامة ، ما داموا يعرفون حق وطنهم ، وحق إخوانهم ، عليهم .

وكان النظام الاجتماعى ، ونظام الحكم ، يفرضان على النصارى دفع الجزية . ويقول الجبرتى إن المعلم غالى ، كبير القبط فى عصره ، التزم بأن يدفعها إلى محمد على خمسة وثمانين كيساً[1] . ولم تكن قدراً ثابتاً ، معروفا . بل كان يفرضها الوالى ، أوشيخ البلد ، كبير المماليك ، كيفما شاء . وكان بعض الحكام أيضاً يظهر من ضيق الأفق شيئاً كثيراً فيوقع بغير المسلمين ظلمه ، كما فعل إسماعيل بك الصغير المعروف بالغزاوى . وقد مات فى سنة ١١٩١ .

ولكن هذا النظام الاجتماعى نفسه ، ونظام الحكم ، كانا يجعلان للنصارى واليهود سلطاناً عظيما فى الدولة ، وعلى الشعب . فقد كان هؤلاء ، إلى جانب اشتغالهم بالتجارة ، والصناعة ، والزراعة ، يختصون بالشؤون المالية فى الدولة . كان

---

(١) يقول أمين باشا سامى ، فى الجزء الثانى من تقويم النيل ، إن الكيس كان خمسمائة قرش . ويقدره الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، فى كتابه عن السيد عمر مكرم ، بنحو أربعين جنيها . بالعملة الحالية .

منهم جباة الضرائب . وهم الذين يقدرونها على الأراضى ، والمحاصيل . وفى أيديهم سجلاتها ، وأورادها ، وحساباتها . وما يسجل فيها من الأراضى البور ، فتعفى من الضريبة . ومن المزرع ، فيفرضون عليه القدر الذى يريدون . وسلطتهم فى ذلك مطلقة ، وكلمتهم نافذة . وما يكتبونه فى سجلاتهم ، لا معقّب عليه بعدهم . وكان كبار المماليك يختارون لإدارة أموالهم الخاصة ، القبط ، واليهود . ويولونهم فى ذلك الثقة كلها . وكان الكتبة ، والمحصلون ، ورؤساؤهم من المباشرين ، كلهم من القبط غالباً ، ومن اليهود أحياناً . سواء فى أموال الدولة ، أم فى أموال الأمراء . والسراة .

ويقول الجبرتى إن محمداً علياً وضع لسجلات هذه الضرائب نظاما ، كان يقضى بأن تكتب باللغة العبرية [1] لأن فرقة من كتابها كانوا من اليهود .

وكان رئيس المشرفين على هؤلاء الجباة يسمى « كبير المباشرين » وقد بلغ بعض هؤلاء من الثروة والمجد مبلغاً عظيما . مثل المعلم رزق ، والمعلم إبراهيم الجوهرى ، وأخيه جرجس . والمعلم غالى . فالمعلم رزق كان بمثابة وزير مالية الدولة فى عهد على بك الكبير . وكان أيضاً أمين سره وكبير مستشاريه فى شؤون الدولة .

ويقول الجبرتى إن « المعلم رزق » ، « بلغ من العظمة ما لم يبلغه قبطى ، فيما رأينا » .

أما إبراهيم الجوهرى فقد تولى ، عند محمد بك أبو الذهب ، خليفة على بك الكبير ، ما كان يتولاه المعلم رزق عند على بك . من أمور المال والخراج والضرائب .

ويقول فى ترجمته إنه أدرك بمصر من العظمة ، ونفاذ الكلمة ، وعظم الصيت والشهرة ، مع طول المدة ، ما لم يسبق لمثله . وبعد وفاة محمد أبو الذهب ، نال عند خلفه ، إبراهيم بك مكاناً أعظم . حيث « قلده جميع الأمور ، فكان هو المشار إليه فى الكليات والجزئيات . حتى دفاتر الرزنامة ، والميرى وجميع الإيراد

---

(١) ص ١٨٢ من الجزء الرابع .

والمنصرف . وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده وإشارته . وكان من دهاقين العالم ودهاتهم ، لا يغرب عن ذهنه شيء من دقائق الأمور ، ويدارى كل إنسان بما يليق به من المداراة ، ويحابى ويهادى ويواسى . ويفعل ما يوجب انجذاب القلوب والمحبة . ويهادى ويبعث الهدايا العظيمة والشموع إلى الأمراء . وعند دخول رمضان ، يرسل إلى غالب أرباب المظاهر ، ومن دونهم ، الشموع والهدايا والأرز ، والسكر ، والكساوى » .

ثم يقول إنه فى أيامه ، عمرت الكنائس والأديرة ، ووقفت عليها الأوقاف الجليلة والأراضى ، ورتبت لها المرتبات العظيمة والأرزاق ، والغلال . ولما مات حزن عليه إبراهيم بك كثيراً . وخرج إلى قصر العينى ليشاهد جنازته . وفى ذلك من روح التسامح ، والمحبة ما فيه .

وتوفى المعلم إبراهيم الجوهرى سنة ١٢٠٩ [١٧٩٥ م] .

وتولى جرجس الجوهرى مكان أخيه إبراهيم . ونال ، مثله ، مكانة عظيمة . وبقى ، مدة احتلال الفرنسيين مصر ، محتفظاً بهذه المكانة . ومتمتعاً بالجاه والسطوة والرعاية . وافر الحرمة ، وعند ما عاد العثمانيون ، بعد الفرنسيين ، نال عندهم الحظوة والسلطان .

يقول الجبرتى ، إنه رآه يجلس إلى جنب محمد باشا خسرو ، والدفتردار شريف افندى ، ويشرب فى حضرتهم الدخان ، وينادونه « جرجس افندى » ويرعون جانبه . ويشاورونه فى الأمور .

وكان جرجس الجوهرى عظيم النفس ، كريماً . يغرق على جميع الأعيان فى رمضان ، الهدايا الغالية . كما كان يفعل أخوه إبراهيم . وكانت له ثروة عظيمة ، وقصور تقف على بابها الخدم ، والحجاب .

كما كان خيّرا لا يوافق على إرهاق الناس بالضرائب والمظالم . يطلب منه محمد على أن يجمع له قدرا كبيراً من المال ، فيقول له : هذا لا يتيسر ، ويأبى .

فلما ظهر المعلم غالى تقرب إلى محمد على ، وزين له ما شاء من إرهاق للناس ،

وفرض ما يريد عليهم . وإذا أبى جرجس الجوهرى أمرا يطلبه محمد على ، تقدم إليه غالى وقال له أنا أجمع لك هذا المال . وأنفذ لك هذا الأمر . وانتهت سياسة المعلم غالى بتغير محمد على ، على جرجس . حتى خاف على نفسه منه فهرب إلى الصعيد . ثم حضر بأمان من محمد على . ولكنه لم يباشر أمراً ، حتى مات فى شعبان من سنة ١٢١٥ .

وأصبح المعلم غالى ، بعد ذلك كبير المباشرين . ويسّر لمحمد على أن يجمع من الأموال ما يشاء . كما جمع لنفسه مالا عظيما . ولكن محمد على صادره بعد ذلك فى كثير منه . ففى حوادث شهر رمضان من سنة ١٢٢٥ — فى السابع عشر منه — طلب محمد على المعلم غالى ، وحبسه ، كما طلب المعلم فلتيوس ، والمعلم جرجس الطويل ، والمعلم فرنسيس ، أخا المعلم غالى ، وباقى الأعيان من مباشرى القبط . فنفى بعضهم إلى دمياط . وحبس الآخرين فى القلعة . وختموا على دورهم . ثم انتهى الأمر بالعفو عن غالى ، على أن يدفع قدراً من المال يشك الإنسان فى تصوره . ولكن الجبرتى يذكره ويحدده ، بأربعة وعشرين ألف كيس .

ومن مظاهر المودة والإخلاص ، ما رواه الجبرتى من أن كاشف البحيرة ، من قبل محمد على ، قبض على السيد حسين نقيب الأشراف فى دمنهور ، وألزمه بأن يدفع ألفى ريال ، وإلا قتله بعد أربع وعشرين ساعة . فلما عجز عنها ، رجا من النصارى المباشرين أن يدفعوها عنه ، فدفعوها ، ونجا ، أو كما يقول الجبرتى بأسلوبه الطريف « تخلص بالحياة » .

ومن طريف ما ذكره الجبرتى ، وهو مظهر من أقوى المظاهر ، التى تدل على الشعور والعاطفة بين المسلمين والأقباط . أنه ، فى سنة ١٢٢٣ جاء النيل ناقصا . وانتظر الناس وفاءه ، فلم يف . فضجوا وانزعجوا ، ولم يجدوا غلالا . ثم رأى العلماء أن يقيموا صلاة الاستسقاء ، فى جامع عمرو ، فذهب كبارهم ، ومعهم السيد عمر مكرّم ، وأهل الأزهر ، وكثير من الأطفال ، يدعون الله فى صلاتهم أن يوفى لهم النيل .

وأقيمت صلاة الاستسقاء فى صبح يوم زاد فيه النيل زيادة قليلة . فلما أتموا صلاتهم ، ورجع كثير منهم إلى القاهرة ، عاد النيل فنقص مازاد من ماء قليل .

وبعد يومين عاد العلماء والناس إلى جامع عمرو ، يتوجهون إلى الله فى صلاة الاستسقاء ، مرة أخرى، أن يوفى لهم النيل . وأشار بعضهم بأن يشترك الأقباط فى الصلاة ، فاشتركوا . وجاء المعلم غالى ، كبيرهم ، ومعه كثير منهم ، فجلسوا فى ناحية من المسجد ، حتى أتم المصاون صلاتهم ودعاءهم . ولم تمض ليلة واحدة ، حتى أوفى النيل . وزاد ماؤه ، حتى غطى على المقياس . وبعد ذلك بيوم واحد . نودى فى القاهرة بوفاء النيل . وأطلقت المدافع ، وأقيم الاحتفال المعتاد . ثم يقول الجبرتى إن بعض الأقباط فرح فرحاً شديدا بذلك ، وكان يقول إن الزيادة لم تحصل إلا بخروجهم للصلاة .

ومن الذين ذكرهم الجبرتى من القبط ، ولم يوفه حقه ، المعلم يعقوب ، أو الجنرال يعقوب . ونحن نلخص حياته من الجبرتى ومن مصادر أخرى مختلفة ، فى هذه السطور .

ولد يعقوب فى ملوى حوالى سنة ١١٥٨ [١٧٤٥م] ثم دخل فى خدمة كبير الانكشارية سليمان أغا أيام حكم على بك الكبير . وكان يتولى إدارة الشؤون المالية لسليمان أغا هذا ، فجمع من عمله وسعيه ثروة كبيرة . فلما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، أعانها يعقوب وانحاز إليها وقدم لها مساعدات ذات قيمة .

فقد التحق بجيش الجنرال ديزيه قائد الفرنسيين فى الصعيد . وشارك هذا القائد فى مطاردة مراد بك ، وكان يدبر لهذه الحملة ما تحتاجه من مؤن ، ويحارب بسيفه أيضاً معها . فلما عادت الحملة إلى القاهرة ، وكل إليه الجنرال كليبر تنظيم مالية البلاد ، واستخلاص الضرائب والمغارم التى يفرضها الفرنسيون على مصر . وعلى الثائرين من أهلها خاصة . ويقول الجبرتى أن الفرنسيين أطلقوا له فى ذلك حرية واسعة ، وجعلوا له نفوذاً كبيراً بعد ثورة القاهرة الأولى عليهم ، فكان يفعل بأهلها ما يشاء . حتى جمع للفرنسيين ما فرضوا من مغارم ثقيلة .

وألف يعقوب من أبناء طائفته فرقة لمساعدة الفرنسيين، فجمع منهم فى الصعيد

نحو ألفين[١] ، واستخدمهم إلى القاهرة » وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية ، مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم ، مشابه لشكل البرنيطة ، عليها قطعة فروة سوداء » .

ثم هدم يعقوب الأماكن المجاورة لمسكنه في حارة النصارى ، خلف الجامع الأحمر ، وبنى له قلعة سورها بسور عظيم ، ووضع فيها الأبراج وأقام فيها المدافع . وكذلك فعل بما يحيط بحارة النصارى كلها . وأقام على ذلك كله حراساً مسلحين ، على النظام الفرنسي .

ولما جاءت الجيوش العثمانية والإنجليزية لإخراج الفرنسيين من مصر ، كان يعقوب يعمل قائداً مساعداً للجنرال بليار يدافع معه عن القاهرة حتى لا تدخلها هذه الجيوش .

وقد كافأه الفرنسيون على إخلاصه لهم ، فأنعموا عليه بسيف ، وجعلوه مستشاراً لهم ومديراً للشئون المالية والضرائب . ثم أنعموا عليه بلقب جنرال . وأظهر هو محبة صادقة لهم في مدى السنوات التي أقاموها في مصر ، وبعد خروجهم منها . فقد عرض تبرعه بثلث النفقات ، مهما بلغ مقدارها ، لإقامة تمثال لصديقه الجنرال ديزيه ، عند ما علم بموته . وعند ما حضره الموت كان إلى جواره الجنرال بليار ، فقال له يعقوب وهو يحتضر ، أرجو أن أدفن إلى جوار ديزيه . وكان في أثناء حملة ديزيه على الصعيد ، يقيم له ولضباطه الولائم الفاخرة .

ولما خرجت الحملة الفرنسية من مصر ، كان من شروط تسليمها أن يسمح لمن يشاء من الذين عملوا معها ، ولو لم يكن فرنسيا ، أن يصحبها . فخرج يعقوب معها ، وركب البارجة الإنجليزية بلاس ، مع الجنرال بليار . وكانت آخر البوارج التي غادرت ميناء الإسكندرية . وبعد يومين من سفرها أصيب الجنرال يعقوب بمرض ، ثم مات في صباح يوم ١٦ أغسطس ١٨٠١ ، ولم تلق جثته في البحر ، بل حملت حيث دفن في مرسيليا بمقبرة القديس بطرس . بعد أن شيع جثمانه في احتفال عسكري مهيب .

---

(١) في رواية نقولا الترك ، أن عدد هذه الفرقة ، كان ٨٠٠ .

وقد نشرت الجمعية الجغرافية الملكية فى القاهرة سنة ١٩٢٤ وثائق[١] محفوظة فى وزارة الخارجية البريطانية تتضمن مشروعاً كان المعلم يعقوب قد تحدث به إلى رجال البارجة ؛ وهى فى طريقها من الاسكندرية إلى سرسيلبا . وتتضمن المشروع بنوداً وعروضاً لاستقلال مصر بضمانة الدول الأوربية عامة ، وانجلترا خاصة . ويبيح تكوين جيش أجنبى فى مصر ، وعلى نفقتها ، لرد العدوان عن هذا الاستقلال . حتى يتكون جيش مصرى ، وطنى .

وقد اختلف المؤرخون فى الحكم على المعلم الجنرال يعقوب حنا . بعضهم يرى أنه كان زعيما وطنيا آثر أن يعين الفرنسيين حتى يخلص وطنه من حكم الأتراك والمماليك . فلما فشل فى ذلك بالحرب . حاوله بالسياسة . وتحدث فى ذلك إلى رجال البارجة الإنجليزية ، تمهيداً للحديث فيه مع كبار الساسة منهم .

وبعضهم يقول : إنه كان رجلا طائفياً أراد أن يكسب لقومه مغانم وجاهاً ، فسلك ذلك السبيل الوعر ، وحارب أهل وطنه .

وقبل أن نترك الحديث عن المسلمين والنصارى ، وما كان بينهم من مودة ومحبة ، نلخص قصة رواها الجبرتى عن الشيخ عبد الله الشبراوى ، شيخ الأزهر ، وهى تدلنا على ما كان عنده من تسامح وفهم لروح الدين . كما نجد فيما كتبناه عن كفاح الشعب[٢] ، عند مقاومة المصريين النابليون وحملته ، أمثلة رائعة لوحدة عنصرى الأمة ، وما قام بينهما من تضامن وتساند ، إزاء الخطر المشترك ، الذى ألم بوطنهما . ونجد فيما كتبناه عن الأزهر والعلماء ، فى الجزء الثانى ، شيئاً كثيراً من مظاهر الودّ بين أصحاب الديانات المختلفة ، فى مصر ، إذ ذاك .

وهذه هى قصة الشيخ الشبراوى : —

---

(١) نشرت نصوص هذه الوثائق أيضاً فى مجلة مصر الحديثة المصورة ، عدد منتصف مايو سنة ١٩٢٨ .

(٢) فى الجزء الثالث من الكتاب

الشيخ الشبراوى ونوروز

فى سنة ١١٦٦ كان الشيخ عبد الله الشبراوى شيخاً للأزهر ، وكان كبير الأقباط فى مصر رجل اسمه نوروز ، وكان نوروزهذا فى الوقت نفسه، كاتباً لرضوان كتخدا . كما كان صديقاً للشيخ الشبراوى . وأراد بعض كبار الأقباط أن يستفيد من هـذه الصداقة ، فطلبوا أن يؤذن لحجاج بيت المقدس منهم ، فى أن يخرجوا من مصر إليه مجتمعين ، فتحدث نوروز فى ذلك إلى صديقه شيخ الأزهر ، فكتب الشيخ له فتوى خلاصتها : أن أهل الذمة لا يمنعون من أداء شعائرهم الدينية ، وزيارة أماكنهم المقدسة .

ويقول الجبرتى : إن كبير القبط هذا قدم للشيخ هدية وألف دينار ، حتى كتب فتواه ، ولعل سخط الجبرتى على هذه الفتوى ، أو على سوء استغلالها ، كما سيجيء بعد ، هو الذى حمله على رمى الشيخ الشبراوى بهذه التهمة ، فإن فتوى الشبراوى هى الرأى الشرعى المطابق لقواعد الإسلام .

فرح نوروز وأقباط مصر بهذه الفتوى فرحاً أخرجهم عن واجب الاتزان والحكمة ومراعاة الظروف وتجنب الزلل ، فعندما حصل كبيرهم على الفتوى أسرعوا فى التجمع ، وتهيئوا للخروج من القاهرة إلى بيت المقدس ، ولكنهم عند خروجهم جمعوا طبولا كثيرة « وخرجوا فى هيئة وأبهة ، وأحمال ، ومواهى، وتختروانات فيها نساؤهم وأولادهم ، ومعهم طبول وزمور ، وأحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم ، وأعطوهم أموالا ، وخلعاً ، وكساوى وإنعامات » .

ومن الطبيعى ، فى مثل ذلك الوقت على الأقل ، أن تثير كل هذه المظاهر شعور الناس وأن تُسخطهم ، وتحرك غضبهم ، وقد سخطوا فعلا وغضبوا ، واستنكروا هذا الذى رأوا .

وكان الشيخ الشبراوى بعد ذلك فى زيارة الشيخ البكرى يعوده فى مرض ،

فقال البكرى للشيخ : — ما هذا الذى أمرت به ياشيخ الإسلام . . ؟ وهل رأيت ما فعل القوم ، بسبب هذه الفتوى . . ؟ أما تخشى أن تصير لهم سنة وحقاً يطالبون به فى كل عام ، ويخرجون فى العام القادم بأكثر مما خرجوا هذا العام ، ويصنعون لهم محملا ، ويقال : حج النصارى وحج المسلمين . . ؟

وخرج الشيخ الشبراوى من بيت البكرى ، وكأنه قد ندم على فتواه ، وكأن الناس ألحوا عليه وأثقلوا ، كما فعل البكرى. فخضع لعواطف الجمهور ، وأذن للعامة، كما يقول الجبرتى ، فى الخروج عليهم ، ونهب ما معهم « فاجتمعوا عليهم ، ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ، ونهبوا ما معهم » .

وقد كان الشيخ الشبراوى ، فى موقفه الأخير هذا ، خاضعاً لفورة العامة ، منساقاً مع رغبتهم ، مستسلماً لنزواتهم ، بل مهيجاً لها . وكان يستطيع أن يتصل بصديقه نوروز ، وهو كبير القبط ، ليمنعهم من إثارة شعور الناس . عند خروجهم لبيت المقدس ، بدلا من إذنه للعامة بنهب حجاج النصارى . ولكنه آثر السلامة ، وخشى على نفسه ثورة العامة ، ففعل ما فعل ، ليوجه به غضبهم وجهة أخرى .

الإيمان والثقة بالنفس :

ومن الظاهر التى تستحق التأمل ، فى حياة المجتمع المصرى الذى نؤرخ له ، ظاهرة ضعف الثقة بالنفس . فقد كان المصريون ، حتى كبارهم وقادتهم ، لا يثقون بأنفسهم ، ولا بكفاياتهم فى ولاية الأمور العامة .

فقد أظهر أهل هذا الجيل قدراً كبيراً من العناد والصلابة ، فى الحرص على حقوقهم العامة ، ورفع الظلم عن نفسهم ووطنهم ، ودفع العدوان الذى أراد به الإنجليز احتلال مصر . ومقاومة الحملة الفرنسية مقاومة باسلة حتى لم تجد بداً من الرحيل .

وقد فصّلنا ، فى الجزئين التاليين ، بعض مظاهر هذه الصلابة العجيبة النادرة فى حرب الفرنسيين عند غزوهم مصر ، وفى حرب الولاة العثمانيين الذين كانوا يعتدون على شرف الوطن قبل ذلك ، وفى رد الحملة الإنجليزية على رشيد .

obeikandi.com

وقد كانت هذه الحرب تبدو — للتباين البعيد بين قدرة الشعب ، وقوة الغزاة — أشبه بالانتحار ، ولكن ذلك لم يضعف من عزمه ، ولم يثنه عن الصمود ، ولم يقلل من عناده وصبره وجلده ، حتى كان له الغلب والنصر فى نهاية الأمر .

وكان الجبرتى ، المصرى الأمين المتزن ، يصف المجاهدين من أهل القاهرة الذين يقاتلون جند نابليون ، بالحجارة ، وقطع الأخشاب والحديد ، وقليل من البنادق ، كان يصفهم « بالحرافيش » و « الزعر » ، لأنه ما كان يصدق ، أو يتوهم ، أن هذه الحجارة والأخشاب فى أيديهم ستغنى ، أقل غناء ، فى مقاومة المدافع والقنابل فى يد الجند القوى المدرب ، ولكن الإيمان الذى كان يغمر القلوب ، جعل هؤلاء الزعر والحرافيش ، يحيلون حياة هذا الجند إلى جحيم ومحنة متصلة ، حتى أخرجوهم من وطننا . فالإيمان القوى ، لا يعرف المستحيل ، وقد يجعل من الجنون حكمة .

ومع ذلك ، كان شعبنا ، فى هذه الفترة ، على ما فيه من صلابة وجلد ، ضعيف الثقة بنفسه ، ولا أريد أن أسترسل فى ذكر الأسباب والعوامل . بل أذكر بعض الشواهد ، التى تبرز هذه الظاهرة وتوضحها .

أراد نابليون ، بعد دخوله القاهرة ، فى ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٨ ، أن يختار بعض المصريين للوظائف الكبيرة ، وكان قد وعدهم فى منشوراته من قبل أن يفعل ذلك ، فلما تم اختيار « أعضاء الديوان » الذين يسند إليهم التصرف فى شئون الحكم المدنية ، طلب إليهم الفرنسيون ترشيح بعض المصريين للمناصب الكبرى ، كمحافظ القاهرة ، ورئيس الشرطة فيها — الحكمدار — وأمين الاحتساب — أى المسئول الأول عن التموين والأسعار — ، وكانت هذه الوظائف وأمثالها فى يد المماليك والأتراك . ولكن أعضاء الديوان لم يقبلوا وكانوا تسعة من كبار المصريين ، هم المشايخ : عبد الله الشرقاوى ، وخليل البكرى ، ومصطفى الصاوى ، وسليمان الفيومى ، وموسى السرسى ، ومصطفى الدمنهورى ، وأحمد العريشى ، ويوسف الشبراخيتى ، ومحمد الدواخلى .

لم يرض هؤلاء الكبار المصريون ، ترشيح مصرى لهذه الوظائف . وقالوا إنه لا يصلح لها سوى الأتراك والمماليك . واختار أعضاء الديوان هؤلاء بعض الأتراك والمماليك لهذه الوظائف . فأسندها إليهم الفرنسيون .

وخرج القاضى التركى ، إبراهيم أدهم افندى ، عن طاعة نابليون ، مع أمير الحج المصرى مصطفى بك . فاختار الجنرال دوجا ، فى غيبة نابليون إلى الشام ، ابنه ملازاده ليكون قاضياً بدله . فلما عاد نابليون إلى القاهرة ، لم يرض ما فعله دوجا . فحبس ملا زاده فى القلعة . وطلب إلى العلماء وأعضاء الديوان أن يختاروا قاضياً « مصرياً » تكون له السلطة العليا على قضاة مصر وأحكامها . بدلاً من ذلك القاضى التركى الذى كانت ترسله لهم الدولة . وكان نابليون قد علم بخروج جيوشها مع الجيوش الانجليزية ، لحربه فى مصر . فأراد أن يحارب نفوذها الدينى فيها بحرمانها من اختيار القاضى وتعيينه . وهو بذلك يترضى عواطف المصريين أيضاً .

ولكن هذا الإغراء لم يكن مرغباً للعلماء ليختاروا عالماً « مصرياً » للقضاء . بل تمسكوا بملا زاده ، ليبقى قاضياً . وهو فتى صغير ، غير ذى خبرة ولا قدرة . وتشفعوا عند نابليون ليطلق سراحه . ويبقيه حيثما اختاره دوجا ، ولكن نابليون رفض رجاء العلماء . وحتم عليهم أن يختاروا ، بالاقتراع ، مصرياً ليكون قاضياً للقضاة . وكانت نتيجة الاقتراع ، بعد ذلك ، بعيدة عن أن تجيء بمصرى . فقد اختير الشيخ أحمد العريشى . وكان سورياً من خان يونس ، قدم إلى القاهرة والتحق بالأزهر .

وأخرج المصريون جيش نابليون من وطنهم . ثم أخرجوا خورشيد باشا ، الوالى التركى الذى رفض أن يقبل عزلهم له ، وقال إنى وليت بأمر السلطان فلا أخرج بأمر « الفلاحين » . واختاروا « سرشسمة » محمداً علياً والياً على مصر . وأراد هذا ، فى أول حكمه ، أن يختار زعيم مصر عمر مكرم نائباً له . ولكن السيد عمر لم يقبل . وكان يستطيع فى ذلك الوقت أن يكون نائباً لمحمد على . وأن ينزعه من الولاية بعد ذلك عند ما يشاء . بقوة هذا الشعب الذى اختاره ، وولاه ، ونصره .

حياة المرأة

كانت الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، فى هذا العصر ، يعتورها — كما رأينا — كثير من القلق والاضطراب والبعد عن الاستقرار . وكانت الحياة الفكرية والأدبية — فى جملتها — على ما رأينا من التخلف والخضوع لطائفة من التقاليد الضارة والأوهام والجهالات . ويجب ألا ننسى أيضا عامل البيئة وما كان فيها من حجر على المرأة . ولكن هذا كله ، لم يمنع ظهور طائفة من النساء نالت من المكانة الاجتماعية حظا عظيما . وكان بعضهن له أثر ، قليل أو كثير ، فى مجرى الأمور العامة .

وقد عاشت فى مصر ، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، سيدة من أعظم السيدات فى تاريخها هذا الذى نسجله . بل لعلها ، فى شجاعتها ، وقوة شخصيتها ، ونفسها الكبيرة ، أعظم من كثير من الرجال . ولكن الخاتمة المحزنة ، التى ختمت بها حياة قومها من المماليك ، الذين غدرهم محمد على وفتك بهم فى مذبحة القلعة ، وبعدها ، هذه الخاتمة وتلك النهاية ، أسدلتا على اسمها وتاريخها سحبا كثيفة من النسيان والحجب . كما أظلّت ختام حياتها سحب كثيفة من المحن والآلام تحملتها صابرة عزيزة كريمة ، حتى ماتت .

وهذه السيدة العظيمة هى نفيسة المرادية .

نفيسة المرادية

كانت السيدة نفيسة المرادية ، زوجة مراد بك[1] ، جركسية الأصل من بلاد الكرج . وبدأ ظهور أمرها عندما دخلت فى حريم على بك الكبير كإحدى سراريه ، فأحبها وأعجب بها وبنى لها داراً تطل على بركة الأزبكية ، فى درب عبد الحق .

فلما انتهت حياة سيدها على بك ، تلك النهاية التى نراها فى ترجمته ، زوجها مملوكه الخائن محمد أبو الذهب إلى مراد بك . وفى حياة زوجها هذا ، نالت ، فى المجتمع

---

(١) يذكر الجبرتى فى العجائب وفى مظهر التقديس زوجا أخرى لمراد ، اسمها فاطمة .

المصرى ، مكانة عظيمة . وتعرضت بسبب إخلاصها له ، وبسبب قوة شخصيتها أيضاً ، لمحن كثيرة . وكانت تعرف القراءة والكتابة . ولها من الخيرات ، الصهريج الذى بنته داخل باب زويله ، وخانا . وكان لهذه السيدة مكان الاحترام والتقدير والإجلال عند العلماء ، والأمراء ، وعند الشعب أيضاً . ولما دخل نابليون القاهرة كانت لها عنده منزلة عظيمة كما كان قواده ، ورجاله كلهم ، يرعون جدتها ويجعلون لها فى تقديرهم حساباً كبيراً ، وإن كانت الأحداث الحربية والسياسية جعلتهم ، فى أوقات كثيرة ، يصادرونها ، ويفرضون عليها الغارم ، ويعتقلونها. لما كانت تبديه من نشاط لا يرضون عنه .

وكانت السيدة نفيسة تعارض زوجها مراد بك ، وهو مطلق السلطان على مصر ، فى مصادرة التجار الأوربيين وإرهاقهم بالضرائب والغارم . وكانت تبلغ من الجمال حداً فائقاً ، حتى يقول بعض المؤرخين أن مراد بك اشترط على محمد بك أبو الذهب أن يزوجها له نظير خيانته لسيده على بك . ويبدو أنها لم تسكن بعيدة عن ممارسة الشئون العامة أيضاً .

فقد نقل لا كروا ، عن المذكرات التى أملاها نابليون فى سانت هيلين . أن مراد بك لما عاد من البحيرة إلى الجيزة منهزما ، صعد إلى قمة الهرم الأكبر ، وأخذ يتبادل الاشارات مع زوجته نفيسه ، وهى فوق سطح منزلها . وتناقل الناس ذلك فى القاهرة حتى سمعت به ، فخشيت على نفسها من الفرنسيين . فذهبت إلى منزل نابليون وطلبت مقابلته ، فتلقاها بكل احترام . وأكد لها أنه لا يحفل بهذه التهمة التى وجهت إليها . وأنها لو أرادت الاجتماع بزوجها لما تردد فى مهادنته يوما وليلة حتى يلتقيا .

ولعل نابليون أراد بهذه المجاملة ، أن يتخذ من السيدة نفيسة وسيلة للتأثير على زوجها ليقبل الصلح .

ومما يدل على مكانة هذه السيدة ، أن الحكومة الفرنسية أهدت إليها ، قبل حملة نابليون ، ساعة ذهبية مرصعة بالماس اعترافا بأعمالها الجليلة ، وتقديرا لها . وأن

ديجنت كبير أطباء الحملة الفرنسية ، عندما ألف كتابه باللغة العربية، عن مرض الجدرى فى مصر ، أهدى إليها خمسين نسخة منه .

ولما دخل الفرنسيون القاهرة وفر زوجها مراد بك إلى الصعيد . لم تهرب معه ، وبقيت فى قصرها ، وبسطت حمايتها على كثير من نساء المماليك المنكوبين ، وواست كثيرين من الفقراء ، ومن الذين نكبوا فى حرب الفرنسيين من أهل القاهرة . ودفعت كثيراً من المغارم التى فرضها الفرنسيون على المصريين ، فلم يستطع كثيرون منهم دفعها . ونالت بذلك احترام المصريين والأجانب .

وفرض الفرنسيون على نساء البكوات ، ونساء أتباعهم ، نصف مليون فرنك ، فقدمت السيدة نفيسة الساعة التى أهدتها لها الحكومة الفرنسية من حصتها فى الغرامة . فقدرت بأربعة وعشرين ألف فرنك ، وقدمها إلى نابليون أحد رجاله ، فأهداها إلى صديقته بولين فوريس .

وكانت للسيدة نفيسة ثروة عظيمة ، كما رأينا أول هذا الفصل . أقامت يوما لبعض رجال نابليون مأدبة فى دارها . وعند انصرافهم ، بعثت معهم بخاتم ثمين مرصع بالجواهر الغالية ، هدية إلى أوجين بوهارنيه « ابن جوزفين زوجة نابليون » . وكانت قيمة هذا الخاتم كبيرة إلى درجة أغرت الفرنسيين على أن يفرضوا عليها ضريبة فادحة . بدل أن يحمدوا لها مجاملتها وهديتها . فلما شكت إليهم ذلك ، قالوا إن من عنده مثل هذا الخاتم ، يستطيع أن يدفع أكثر مما فرض عليك .

وإقامة نفيسة المرادية لمثل هذه المأدبة ، تدل على أنها كانت سيدة مجتمع ، بالمعنى الذى يعرفه الناس فى عصرنا هذا .

وقد بقى نابليون ، بعد خروجه من مصر ، وبعد أن أصبح امبراطورا ، يذكر هذه السيدة . حتى إنه بعث ، وهو فى قمة مجده ، أمرا إلى قنصل فرنسا فى مصر ، بأن يبذل كل جهده لحمايتها ، ورعاية أمرها . وكان ذلك فى عهد محمد على .

وعندما قبل مراد أن يفرضه نابليون حاكما على الصعيد ، تحت الراية الفرنسية ، رتب للسيدة نفيسة ، فى كل شهر مائة ألف فضة . وبقيت تنال هذا المرتب من الفرنسيين ، حتى مات زوجها .

وقد لقيت السيدة نفيسة محناً كثيرة . وتعرضت لمخاطر جمة ، بعد هزيمة زوجها وفراره، فى سبيل حماية زوجات المماليك ، الذين كانوا يحاربون معه . ولعلها بذلك كانت تثير فيهم روح العناد والمقاومة . وتبقى على إخلاصهم لزوجها ، ومعونتهم له .

يقول الجبرتى ؛ فى حوادث شهر ربيع الثانى من سنة ١٢١٣، إن الجنرال دبوى قائمقام نابليون ، أرسل يطلب إليها أن تحضر زوجة عثمان بك الطنبرجى — من كبار المماليك أنصار زوجها . وقد اختاره الفرنسيون كبيرا على الأمراء المرادية بعد وفاة مراد بك — وكان السبب الذى جعل دبوى يطلب إليها ذلك . أنهم ضبطوا تابعا لها يقوم بالسفارة بينها وبين زوجها ، وأنها طلبت إلى تابعها هذا أن يحمل إلى زوجها ثيابا ، وأموالا . فلما سمعت السيدة نفيسة ما طلبه دبوى . أرسلت إلى العلماء تستنجدهم فحضر إليها منهم الشيخان محمد المهدى ، وموسى السرسى . ولكنهما لم يستطيعا منعها من تلبية ما أمر به القائد . فذهبا معها إلى دبوى ، ليحضرا سؤالها . فلما انتهى النهار طلب إليه الشيخان أن يأذن لها بالذهاب إلى بيتها على أن تعود فى الغد ، فلم يأذن . فقالا له : — دعها تذهب ونحن نبيت بدلا منها ، فرفض . فلما عجزوا ، تركوها فباتت عند الفرنسيين . ومعها جماعة من النساء المسلمات ، والإفرنجيات . وفى اليوم التالى ، ذهب العلماء إلى القاضى ، وكتخدا الباشا ، وذهب الجميع إلى نابليون فحدثوه فى شأنها . فأمر بإحضارها ، وأطلق سراحها ، فخرجت مع القاضى وذهبت إلى منزلها . ولم يستطع دبوى أن يثبت عليها دعواه . ولكنهم فرضوا عليها ثلاثة آلاف ريال

وبعد ذلك نادى الفرنسيون على زوجات الأمراء ، بأن يظهرن مخبئات أزواجهن ، أو يصالحهن على أنفسهن . فصالحت السيدة نفيسة ، على نفسها ، وعلى نساء الأمراء من أتباعها ، بمائة وعشرين ألف ريال . وتشير بعض وثائق الحملة الفرنسية إلى أن ما فرض على السيدة نفيسة ، من الغرامات ، بلغ ستمائة ألف فرنك .

ومات مراد ، ثم خرج الفرنسيون من مصر . فبدأت الأيام تميل بهذه السيدة العظيمة . حيث عاد الأتراك إلى السيطرة على القاهرة ، ونفوسهم مملوءة بالحقد والموجدة على المماليك . فنالها من ذلك الحقد شر عظيم . وكلما رأى الأتراك منزلتها

باقية فى نفوس العلماء والناس ، ومحبتهم لها لم تتأثر بفقد زوجها وتغير الأيام عليها ، كلما أمعنوا فى الأساءة إليها وامتهانها .

وكان أحمد باشا خورشيد ، أشد هؤلاء الولاة من الأتراك قسوة عليها ، وغلظة معها . ولكنها عرفت كيف تقف أمامه شامخة مرفوعة الرأس . بل عرفت كيف تخزيه وهو صاحب الحكم والسلطة المطلقة ، وهى سيدة هزم زوجها ومات ، وتركها مهيضة الجناح . ليس لها قوة ، إلا قوة نفسها ، وعظمة شخصيتها .

يقول الجبرتى ، فى حوادث اليوم الحادى عشر من شهر رجب سنة ١٢١٩ ، إن خورشيد باشا أرسل الوالى والمحتسب إلى بيت السيدة نفيسة وطلبها إليه . فذهبت معهما ، ومعها امرأتان ، فأصعدهن إلى القلعة . فلما دخلت السيدة نفيسة على الباشا قام إجلالا لها ، وأجلسها . ثم تحدث إليها لائما ، ومتهما . فقال إن جارية لها ، اسمها منوّر ، كانت تتحدث إلى بعض أصحاب النفوذ ليسعى فى خلاص المماليك ، ومعونتهم ، وكانت تعده وتمنيه بالأموال ليقبل رجاءها . فقالت له نفيسة ، إن ثبت أن جاريتى فعلت ذلك ، فأنا المأخوذة به ، دونها ، فأخرج الباشا من جيبه ورقة يشير بها اليها . كأنما يريد أن يفهمها أنها دليل التهمة . فقالت له أرنيها حتى أقرأها . فإنى أستطيع أن أقرأ ، فأدخلها فى جيبه .

فقالت له السيدة : لقد عشت فى مصر هذا الدهر الطويل ولى من المنزلة والمكانة ، مايعرفه الكبير والصغير . « والسلطان ، وعظماء الدولة رجالا ونساءاً ، يعرفونى ، ويعرفون قدرى . حتى الفرنسيون ، أعدائى وأعدائك ، لم أر منهم إلا التكريم والاحترام . أما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم . ثم قالت له : — لأى سبب تخرجنى من بيتى وترسل إلىّ الوالى لأحضر إليك .. ؟ » فأخذ خورشيد باشا يتلطف معها فيقول : إن الوالى هو أكبر رجالى ، وقد أرسلته إليك من باب التكريم والتعظيم : ثم اعتذر إليها وطلب منها الذهاب إلى بيت الشيخ السحيمى بالقلعة ، فذهبت وبقيت عنده فى حراسة من الجند . فلما عرف الناس ذلك حزنوا ، وانزعجوا . وركب القاضى ، والسيد عمر مكرم ، والشيخ السادات ، والشيخ الأمير ، وغيرهم ، يقصدون خورشيد باشا . فلما تحدثوا إليه فى أمرها ، قال لهم إنى أنزلتها بيت

obeikandi.com

الشيخ السحيمى ، مكرمة ، حسما للفتنة . ثم ذكر لهم ما تحدث إليها فيه من أمر جاريتها ، منور . فهاجّوه فى ذلك ، ثم اختلا بها الشيخان الفيومى والمهدى يسألانها ، فأنكرت ، وقالت إنه يريد أن يصادرنى فى مالى ، ولم يبق لى مال . ثم عادوا إلى خورشيد باشا ، وخاطبه الشيخ الأمير خطابا شديداً . ونفر من مجلسه مغضبا ، فاستبقاه خورشيد ، وانتهى الأمر على أن يأذن لها فى البقاء فى منزل الشيخ السادات .

ولم ينته الشهر نفسه ، حتى أرغمها خورشيد على دفع مايريد من المال . كما أرغم نساء المماليك أيضا على مثل ذلك . حتى باع أكثرهن متاع بيوتهن .

ولقيت السيدة نفيسة ، بعد ذلك ، أشد المحن والكوارث ، على يد محمد على . بعد أن توطد حكمه . فقد صادر ما بقى عندها من مال وعقار . وعاشت بقية أيامها فى فقر وجهد . ولكنها لقيت ذلك كله ، بصبر دونه صبر الرجال . ولم تفارقها مروءتها ، ولا شمم نفسها ، ولا إباؤها .

ومما يدل على أنها بقيت شامخة النفس ، حتى بعد هذه المحن والكوارث ، ما رواه الجبرتى عن موقفها من زوجة محمد على ، عند ما جاء بها زوجها إلى مصر ، أول مرة .

ففى صبح يوم الأربعاء السادس عشر من ربيع الثانى سنة ١٢٢٤ ، وصلت زوجة محمد على ، ومعها ابنها إسماعيل وكثير من أهلها وأهل زوجها . وكان ابنها إبراهيم قد ذهب لملاقاتها فى الإسكندرية . وعند وصولها إلى القاهرة ، خرج محمد على لملاقاتها فى ساحل بولاق . وأمر نساء المماليك بالنزول لملاقاتها أيضاً . فذهبت منهن نحو خمسمائة ، بركبن الحمير ، واعتذرت نفيسة المرادية من الذهاب لملاقاة زوجة محمد على ، متعللة بالمرض .

وقد يفهم من سياق ما ذكره الجبرتى بعد ذلك ، أن محمداً عليا لم يقبل عذرها ، وأرغمها على النزول لملاقاة زوجته .

وماتت نفيسة المرادية عجوزا ، فقيرة ، عزيزة ، بعد أن كانت ملكة على مصر ، يوم الخميس ، العشرين من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٣١ [آخر أبريل ١٨١٦م]

فى بيتها الذى بناه لها على بك . وبعد موتها استولى محمد على على هذا البيت ، وأسكن فيه بعض أكابر دولته .

وقد ظلت هذه السيدة العظيمة ، حتى فى أيام محنتها ، ترعى بمعروفها وبرها ، أسراً كثيرة أعنتها الدهر بعد يسر .

ومن المواقف الكريمة ، التى يسجلها الجبرتى لنساء ذلك العصر ، ما فعلته زوج إبراهيم بك ، بعد موته . فقد أبى عليها وفاؤها أن تتركه ، بعد موته ، يدفن فى غير قبره الذى أعدته له . فاستأذنت محمداً علياً فى أن ترسل إحدى نسائها إلى دنقلة ، حيث مات ، فتحضر جثمانه ، فلما أذن محمد على لها فى ذلك ، سافرت المرأة فحضرت به فى تابوت ، بعد موته بستة أشهر . وأقامت له زوجه ، عند حضوره ، جنازة . وكفارة ، ودفنته إلى جوار ابنه وابنها مرزوق .

ويقول الجبرتى إنه سمع أن محمداً عليا أعان زوجة إبراهيم هذه ، على إحضار جثمانه . فأمر حكام الأقاليم بمعونة من اختارتها لإحضاره . وأعطاها ، عند سفرها قدرا من المال .

كما ذكر أن نساء العرب كن ، فى الوقائع والحروب ، يذهبن إلى ساحتها ، فيجمعن قتلاهن من الرجال ويعدن بهم إلى أهلهن .

ومن النساء اللواتى ذكر اسمهن فى تاريخ هذه الفترة ، السيدة زبيدة ، التى تزوجها الجنرال جاك منو ، بعد أن أسلم وسمى نفسه عبد الله . وزبيدة هذه كان أبوها السيد محمد البواب ، من أعيان رشيد وكان منو حاكما عليها .

ويقول الجبرتى إنها كانت قبل زواجها منه ، زوجا لرجل اسمه سليم أغا نعمة الله ، ثم طلقها . وقد تم زواجها من الجنرال منو يوم ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ « ٢ مارس ١٧٩٩ م » .

وبقية قصتها ، التى لم يذكرها الجبرتى ، أنها وقعت فى أسر الإنجليز عند دخولهم القاهرة مع جيش الدولة العثمانية . فطلبت من الجنرال هتشنسون ، قائد هذا الجيش ، أن يبعث بها وبولدها من منو — وكان اسمه سليمان — إلى زوجها فى الإسكندرية ،

فبعث بها إليه . وأرسلها زوجها منو من الأسكندية إلى فرنسا على إحدى السفن العائدة إليها . ثم التقى بها بعد ذلك . ولم تطب حياتها معه بعد ذلك أبداً . فقد هجرها وأساء عشرتها، وتركها فى مدينة تورينو ، بإيطاليا ، واتخذ بعض الراقصات خليلات له . وبقى ينا كيدها ويسىء إليها حتى ماتت . وقد زاد الجبرتى ، فى مظهر التقديس ، أن زواج منو من السيدة زبيدة كان « غصبا من أهلها » .

أما حياة المرأة عامة . فقد كان من الطبيعى ، فى مثل هذه الحياة القلقة التى كانت تعيش فيها مصر معظم هذه الفترة التى أرخها الجبرتى ، كان من الطبيعى أن يقع ظل من القلق على حياة المرأة عامة .

فكان مألوفا ، فى كثير من الأوقات ، أن يستولى الغالب من المماليك ، أو الجند ، أو الرؤساء ، على زوجات المغلوبين وسراريهم . سواء رضين أم كرهن . ونرى ، فى بعض الأوقات أنهن — وهن حرائر — يبعن بيع الإماء ، أو يهدين إلى أصحاب النفوذ . وأحيانا كان الأقاقون من الجند يستولون على زوجات الأمراء ، بعد هزيمتهم . كما يستولون على بيوتهم ، بالقهر والغلبة .

وكان نساء القاهرة يرغبن رغبة قوية ، فى الزواج من المماليك . ويأبين ، إباءً شديدا ، الزواج من الأتراك العثمانيين . مهما يكن لهم من ثروة ونفوذ .

يقول الجبرتى إنه لما بدا من محمد على ميل إلى صلح الألفى ، وبدأ مماليكه يظهرون أنفسهم ، بعد التخفى ، ظهرت كذلك كثيرات من نساء المماليك ، يتنافسن فى الزواج من الألفية . وكن يقدمن لهم الكساوى ، ويؤثثن لهم البيوت ، وينفقن النفقات الكثيرة ليسّرن لهم الزواج منهن . وكان ذلك يثير الغيظ فى نفوس الأتراك . « فإن العظيم منهم كان إذا خطب أدنى امرأة ، ليتزوج بها ، فلا ترضى به ، وتعافه ، وتأنف قربه . وإن ألح عليها استجارت بمن يحميها منه ، وإلا هربت من بيتها واختفت شهوراً . وذلك بخلاف ما إذا خطبها أسفل شخص من جنس المماليك أجابته فى الحال » .

وكانت لبعض نساء المماليك شخصية كبيرة ونفوذ غالب . من ذلك أن زوجة الأمير على بك قطامش ، تزوجت بعد موته مملوكا لها ، بعد أن أعتقته ، ثم ولّته صنجقا . فكان يسمى « صنجق ستّه » . وكان لهذه السيدة من زوجها قطامش بك أمير اسمه عمر بك .

وكانت المرأة ، فى ذلك العصر ، تعرف التظاهر ، والتجمهر ، والتحريض على الاضراب . بل استعمال العنف مع الرجال ، فى سبيل الدفاع عن مصالحها .

ففى الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٩ ، قدم إلى الجامع الأزهر جمع كبير من النسوة اللاتى لهن أراض بالالتزام عند محمد على . فلما دخلن الجامع صرخن فى وجوه العلماء ، وأبطلن دروسهم . ومزقن أوراقهم ومحافظهم ، وبدّدن كتبهم « وملازمهم » . فتفرق العلماء وذهبوا إلى بيوتهم . وعند ذلك انصرفت النساء ، وهن يقلن : سنجىء كل يوم ونبطل الدروس ، ونمزق الكتب . حتى ننال حقوقنا . وكان من أثر مظاهرة النساء ، واعتدائهن على العلماء ، أن طلب نائب محمد على بعض المشايخ ليعرف منه ماذا أغضب النسوة حتى فعلن ذلك . ونجد ، فى حوادث ذى القعدة من سنة ١٢١٧ ، مظاهرة أخرى للنساء فى الأزهر ، أبطلن فيها دروس العلماء .

ونرى للنساء أيضاً ، غير هذه المظاهرة ، بعض أنواع من المشاركة فى الأمور العامة ، نجدها فى صفحات أخرى من الكتاب .

وفى المحرم سنة ١٢٠٠ ، صدر أمر بمنع النساء من الجلوس أمام حوانيت الصاغة والأسواق ، إلا بقدر الحاجة . ولم يقل الجبرتى هل كانت النسوة اللواتى يجلسن ، يمارسن التجارة ، أم كن مشتريات يطلن الجلوس .

ونجد لبعض النساء ذكرا فى فعل الخير . فالأميرة الحاجة صائمة ، زوج الأمير أحمد كتخدا عزبان ، أنشأت صهريجا فى حارة الشبراوى ببولاق . قريبا من مسجد أبى العلاء ، ووقفت عليه ، فى سنة ١١٢٨ . قدرا من المال ، والغلال فى كل عام

والأميرة آمنة خاتون ، بنت الأمير حسن جوربجى مستحفظان ، وقفت قسما من أملاكها ، فى سنة ١١٤٢ على جامع الكخيا ، الذى أنشأه زوجها الأمير عثمان كتخدا القازدغلى .

وكان إهداء خاتم للفتاة عند خطبتها ، من العادات المألوفة فى ذلك العصر .

وقد تأثرت المرأة القاهرية ، إلى حد غير قليل ، من الناحية الخلقية ، بوجود الفرنسيين فى مصر . وسنرى ذلك عند الكلام على أثر الحملة الفرنسية فى الحياة الاجتماعية .

وكذلك نرى ، عند الكلام عن هذه الحملة ، أن نساء الأسكندرية والقاهرة والريف . حاربن عند نابليون حربا عنيفة واشتركن ، بقسط غير قليل ، فى شرف الدفاع عن أرض الوطن .

وفى صفحات متناثرة مما كتبه الجبرتى نعرف ، عن غير قصد منه ، بعض مظاهر الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية الأخرى . نعرف مثلا أن أطباء من الأوربيين كانت لهم عيادات يمارسون فيها العلاج فى القاهرة . وكانت لهم فيه شهرة كبيرة . فهو يقول فى حديثه عن يوسف باشا حاكم الشام المعزول ، الذى استجار بمحمد على ، إنه فى آخر عمره ، أصيب بداء الصدر . فقصد إلى الأطباء الأفرنج يطبّبون له ، ويطالع فى كتب الطب ، مع بعض الأزهريين الطلبة من المجاورين . ويقول أيضاً إنه فى يوم الأحد العشرين من جمادى الثانية سنة ١٢٣٢ ، طاف فى شوارع القاهرة منادٍ أعمى ، يقوده آخر ، يقول فى ندائه إن من كان مريضا ، أو به رمد ، أو جراحة ، فليذهب إلى خان بالموسكى ، فيه أربعة من حكماء الأفرنج يداوونه ، من غير مقابل . فتعجب الناس من ذلك وتناقلوه . وسعوا إلى هؤلاء الحكماء . وقد ذكر الجبرتي كيفية الدخول إلى هذه العيادة الطبية ، والطريقة التى كان يسلكها الأطباء الأربعة فى الكشف على المرضى ، وصرف الدواء لهم . وقال إن الناس استراحوا لهم ولطريقتهم . ولم يكونوا يأخذون من المريض إلا ثمن الدواء . وهو قليل ، بين قرش ، وخمسة . ثم تعرض لغيرهم من الذين « يدعون التطبيب » من الإفرنج أيضا ، فقال إنه إذا دعى أحدهم

لعلاج مريض . فأول ما يبدؤه ، قبل نقل قدمه ، الدراهم ، بحسب ثروة المريض .

وبعد الزيارة يطلب قدراً من المال ، فى نظير العلاج ، وربما هوّل على المريض مرضه ، ليزيد فى أجره ، فاذا تم الاتفاق على أجر العلاج ، طلب الطبيب نصفه مقدماً . ثم يفرض لنفسه أجراً على كل زيارة لمريضه . ثم يعالجه بعد ذلك بما استحدث عند الأفرنج من الأدوية . يقدمها إليه بأسماء أفرنجية ، فى قوارير الزجاج اللطيفة المنظر . فإن شفى الله المريض ، أخذ الطبيب بقية أجره . وإن مات ، طالب الورثة به ، فإن جادلوه ، قال لهم إنى لا أضمن أجله ، وليس على الطبيب منع الموت ، ولا تطويل العمر . وكانت تعرف أيضاً التذكرة الطبية « الروشتة » .

ومن كبار الأطباء الذين كانوا فى القاهرة ، قبل الحملة الفرنسية ، طبيب سويدى ، هو مسيو لمار ، الذى اختاره نابليون عضواً فى الديوان الثانى . ضمن الأعضاء الأوربيين .

ويذكر الجبرتى الشهور الإفرنجية ، بأسمائها المعروفة عند أهل الشام ، ويسميها الشهور الرومية ، فيقول شهر آيار ، عن شهر مايو . ونجد أهل القاهرة ، مثل أهل الريف ، يؤرخون ، فى بعض الأحيان ، بالتاريخ القبطى .

وكان أهل القاهرة يأكلون ، فى عيد الفطر ، السمك المملح ، كما هى عادة كثيرين منهم إلى الآن . وكانت شوارعها تكنس ، وترش بالماء . حتى قبل قدوم نابليون وأمره الناس بذلك ، كما كانت تضاء فيها الفوانيس ليلا . ولكن ظروف الناس ، فى بعض الأحيان ، كانت تجعلهم لا يحرصون على ذلك ، ولا يلتزمونه .

وكانت بعض الصناعات التى تتصل بالحرب ، ما تزال باقية فى مصر . فهو يترجم ، فى الجزء الأول ، للأسطى إبراهيم السكاكينى ، ويقول إنه كان ذكياً ، متقناً متفنناً . يصنع السيوف والسكاكين ، ويجيد سقيها ، وجلاءها ، ويصنع قرابتها ،

ويسقطها بالذهب والفضة . ويصنع المقاشط الجيدة، والبركارات . وكان حانوته بجوار جامع المرداني فى حى الدرب الأحمر . ومات فى سنة ١١٧١ .

وكانت توجد مصانع للذخيرة ، تصنع فى بعضها المدافع والقنابل . فهو يقول عن حروب محمد بك أبو الذهب فى الشام ، إنه أخذها مراكب الذخيرة والجبخانة والمدافع والقنابر — القنابل — والمدفع الكبير المسمى «أبو مايله» «الذى سبكه فى العام الماضى» . ولعل سبب هذه التسمية أنه كانت له « ماسورة » مائلة .

ونعرف مما ذكره الجبرتى ، عرضا ، أن المحلة الكبرى كانت مدينة صناعية فى ذلك الوقت . وكانت مشهورة بالمنسوجات القطنية ، كما هو شأنها الآن ، وكانت تنسج فيها أيضا مقاطع الحرير ، والأمتعة . وكانت المحلة هى عاصمة إقليم الغربية .

كما نجده يسمى الميدان الذى يعرف الآن «بالعتبة الخضراء» العتبة الزرقاء . وكانت توجد محكمة كبيرة فى القاهرة، ومحاكم أخرى يسميها « المحاكم الخارجة » فى باب الخلق ، وباب سعادة ، وباب الشعرية ، وباب زويلة ، وطيلون، وباب الفتوح، وقناطر السباع ، وبولاق ، ومصر القديمة .